روايات عالمية للناشئة

روبنسون كروزو

دانييل ديفو

RABIE







روبنسون كروزو

دانييل ديفو

يغادر الفتى روبنسون كروزو أهله ووطنه بحثاً عن المغامرات في أعالي البحار، ولكن السفينة التي يستقلها تغرق وينجو بأعجوبة ليجد نفسه فوق جزيرة مهجورة، فيعيش فيها ثمانية وعشرين عاماً .. فكيف استطاع أن يواجه خطر الطبيعة ،وعدوان جيرانه من آكلي لحوم البشر ؟.

وهل يعود إلى وطنه سالماً؟

صدر من هذه المجموعة :

تصميم الغلاف : هيثم فرحات



م ١ خلف كروزو

روبنسون كروزو

(دانييل ديفو)

1660 –1731

ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين

إشراف : محمد كمال

إخراج فني : م. نشوان خريط



روبنسون كروزو

تقديم

ولد دانييل ديغو في لندن حوالي سنة 1660 .

بعد أن تجول في أوروبا ، مارس عدة مهن منها تجهيز السفن ، ثم أفلس ، فانصرف إلى الكتابة . وقد شارك في الحياة السياسية في إنكلترا ، فأدى ذلك به إلى سجن (نيوغيت) حيث تابع الكتابة مثلما كان يفعل خارجه ، ثم أُطلق سراحه بعد سنوات ، فهجر السياسة وكرس حياته للكتابة ، وتوفي سنة 1731 .

إن أهم مؤلفاته قصة " روبنسون كروزو " ، التي نشرت سنة 1719 ، فعرفت نجاحاً لا مثيل له . وقد استوحاها من

حياة أحد البحارة الأسكتلنديين الذي غرق مركبه ، وعاش في جزيرة حياة العزلة ، واسمه إسكندر سلكيرك .

وتعد هذه القصة التي أعجب بها جان جاك روسو من عيون المؤلفات العالمية .

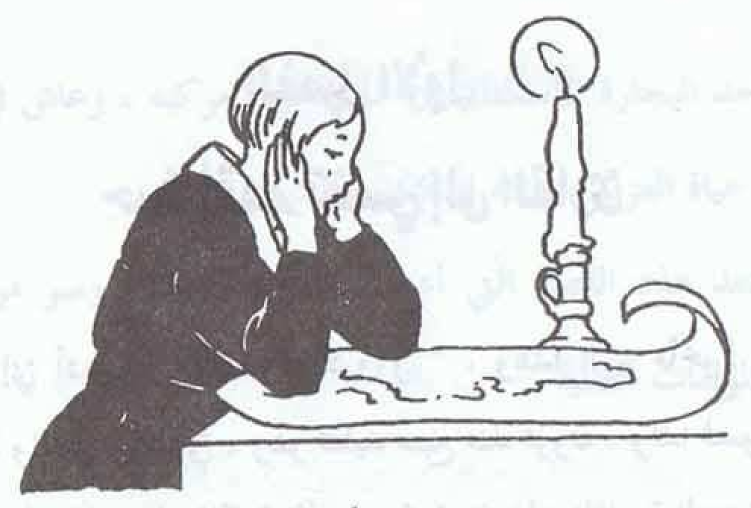
الفصل الأول

حيث أقدم نفسي إلى القارئ

إني أدعى " روبنسون كروزو " ، وهذا اسم مأخوذ من عائلة والدي ووالدتي ، وهو تقليد متبع منذ قرون . ولذا فسوف يظل هذا الاسم في ذاكرة الذين سيقرؤون هذه المغامرة العجيبة ، مغامرة " روبنسون كروزو " .

ولدت سنة 1632 ، ثالث أبناء عائلتي ، وكنت أحلم منذ طفولتي بركوب البحر وجمع الثروات من المناطق النائية .

أراد لي والدي أن أكون محامياً ، ولكن هذه المهنة التي تقتضي القليل من الحركة والكثير من الكلام لا تلائم مزاجي ، وقد سعيت إلى إقناع أهلي بالتخلي عن هذه الخطة التي رسموها لحياتي ، ولكن لم أنجح فعزمت على الهرب سراً إلى لندن والإبحار على أول سفينة يرضى بي قبطانها .



وأعترف بأني كنت حزيناً إذ فارقت أهلي دون أن أودعهم ، ولطالما ندمت على هذا التصرف الطائش الذي يدل على نكران الجميل ، ولكني كنت أخشى أن أطلع أحد أفراد عائلتي على ما عزمت عليه فأضعف أمام عتابه أو دموعه ولا أستطيع السفر ، وكانت لدي الرغبة في السفر بعيداً ما وراء البحار ، فألمس بيديّ وأرى بعينيّ العجائب التي يتحدث عنها الرحالة .

ذات يوم ، ركبت السفينة دون أن يعلم بي أحد ، وبدأت حياة التجوال . لقد كنت قوي العزيمة حاد الذكاء بالنسبة إلى

حداثة سني ، ولم أكن لأخشى مواجهة الأخطار ، ولا أهاب الإقدام على عظائم الأمور .

وقد رافقتني هذه الصفات طول عمري وغطت على بقية عيوبي ، وجعلت القبطان والبحارة يعجبون بي بحاراً مقداماً ، وقد سعوا جميعاً إلى تلقيني أصول المهنة ، وكنت متلهفاً إلى تعلمها بحيث لم أحتج إلى زمن طويل كي أتقنها ، وسرعان ما تعلمت حساب موقع الشمس بالنسبة إلى السفينة في البحر وتوجيه الأشرعة والتجذيف كما ينبغي للبحار أن يفعل .



ما إن انقضت السنة الأولى من رحلتي حتى أصبحت بحاراً ماهراً ، ورسخ في يقيني أن حبي للبحار سوف يدفعني إلى التجوال في القارات جميعاً ، ولكن شاءت لي الأقدار أمراً مختلفاً .

وذلك أن السفينة التي أبحر فيها قد هاجمها القراصنة في الساحل الإفريقي ، وبقيت أسيراً لدى العرب زمناً طويلاً ، وقد عاملني هؤلاء القوم معاملة حسنة واستفادوا من معارفي البحرية ، وخفّت حراستهم لي شيئاً فشيئاً حتى استطعت أن أهرب منهم ذات يوم على متن أحد الزوارق .

وحين أتذكر اليوم تلك الفترة من حياتي حين كنت وحيداً في البحار الواسعة على متن زورق صغير تتقاذفه الأمواج أشكر العناية الإلهية التي جنبتني العواصف والأخطار .

وقد انتشلتني سفينة إسبانية متوجهة إلى البرازيل ، وهي من الأقطار المجهولة لديّ ، ولطالما سمعت من أفواه البحارة حكايات عن عجائبها وفرحت لأن هذه المصادفة تتفق مع أهدافي .

ما إن وطئت قدماي اليابسة حتى اشتغلت في مزرعة لقصب السكر ، وأظهرت من الهمة والشجاعة ما جعل صاحب العمل يوكل إليّ مهمة الإشراف على إدارتها .

وحين تعلمت زراعة قصب السكر ومعالجته ، عزمت على العمل لحسابي لكي أثمّر ما اقتصدته من الأموال أثناء عملي .

اشتريت قطعة أرض وجعلت أزرعها بكل ما أوتيت من قوة ، وقضيت سنوات أعيش حياة الكفاف ، ولكن المثابرة السبيل الوحيدة لصنع الثروة ، فاستطعت أن أجمع ثروة طائلة .

لو أنني داومت على زراعة القصب والتبغ لجمعت بلا ريب ثروة طائلة ، ولكن شاء الله أن أدمر نفسي بيدي .

ذات يوم اجتمع عندي بعض جيراني من المزارعين ، واقترحوا أن نضم أموالنا بعضها إلى بعض كي نجهز سفينة إلى شواطئ إفريقيا لنشتري بعض العبيد من الزنوج نستخدمهم في مزارعنا ، وبما أن رحلاتي السابقة قد ساقتني إلى غينيا ولي معرفة بالتعامل مع الزنوج ، طلبوا مني أن أكون وكيلهم في هذه الرحلة .

وقبلت المهمة راضياً لأنها الفرصة المتاحة للعودة إلى أحلام صباي التي ترسخت في أعماقي ، ألا هي حب الإبحار على غير هدى .

أعددت نفسي لهذه الرحلة ، وأعددت ما يلزم لغرق السفينة إن حدث ، وكتبت وصيتي وأورثت فيها أهلي الأرض

التي أحسنت استثمارها . وتعهد لي جيراني بعقد مكتوب على العناية بأرضي أثناء غيابي مثلما يعتنون بأرضهم ، فلم تكن المزرعة هماً يشغلني ، ولو أطعت عقلي لما غادرت هذه المزرعة المزدهرة أبداً ، ولكني كنت أطيع أهوائي طاعة عمياء ولا أستمع إلى صوت عقلي .

أبحرت أول أيلول التالي .

كان طاقم البحارة يتألف من خمسة عشر رجلاً بما فيهم القبطان والطباخ ، وهم من أخيار الناس ، وقد انتقيناهم بعناية شديدة ، وكانت ذخائرنا ومؤونتنا كافية ونوعيتها جيدة ، وساعدنا الطقس الرائق على بداية هذه الرحلة الموفقة .

وأبحرت بنا السفينة عشرين يوماً على سطح الماء الساكن الذي يداعب السفينة برقة وحنان ، وكان رفاقي يغنون ويعزفون على الأكورديون والقيثار ، وكأنما عزمت الريح على أن تجعل من رحلتنا أسعد الرحلات وأكثرها توفيقاً .

ولكن تغير كل شيء فجأة ، فقد هب إعصار لم أر له مثيلاً في حياتي ، ولم نستطع أن نفعل شيئاً سوى التسليم للأقدار تسوقنا إلى حيث تشاء الرياح العاصفة .



وما زالت الريح تسوقنا في هذا السباق الرهيب اثني عشر يوماً ، وتوقعنا أن تغرق الأمواج العاتية سفينتنا ، وقد أظهر الطاقم كله ما يتحلى به من شجاعة وسط الهلاك ، وكان القبطان في مستوى مهمته ، ولعل هؤلاء البحارة البائسين يستأهلون مصيراً أفضل مما قدر عليهم .

كانت الريح تسوقنا على غير هدى ، والسماء مغطاة بالغيوم الكثيفة تمنعنا من معرفة مكاننا .

وذات يوم ، صاح أحد البحارة : " اليابسة " !

فلم نستطع معرفة هذا الشاطئ الأخضر الذي دفعتنا إليه العاصفة دفعاً ، هل كانت جزيرة أم قارة تلك الأرض التي يمنعنا شاطئها الصخري من الدنو إليها ؟ لم يكن أحد منا يعرف جواباً على هذا السؤال ، وكنت أحسبني قريباً من الأرخبيل الكاريبي ، ولم يكن هذا سوى ظن لا يدعمه اليقين .

أنزل القبطان بعض الأشرعة لكي يخفف من سرعة السفينة إن أمكنه ذلك ، وما كاد يفعل حتى اصطدمت السفينة بجرف رملي ، ودفع البحر السفينة حتى سمعت ألواحها تتكسر وتكاد

تتطاير شظايا ، ونادى الجميع بصوت واحد : " إلى القوارب ، إلى القوارب ! " .

ولمحت إلى القبطان أسأله ، فهز كتفيه كمن يقول :

" لا وسيلة سواها للنجاة من الهلاك " .

وتناهى إلى سمعنا صوت الألواح تتكسر تحت الأمواج التي اندفعت فوق حطامها هائجة ، بحيث أصبح الفرار سبيلنا الوحيد إلى النجاة .



ولكن هل الفرار ينقذنا فعلاً ؟ كنا نعلم أن البحر الهائج قد يغرق زوارقنا في الحال ، فكنا نتبادل النظرات مترددين ، ثم سمعنا ضجة ثانية أقوى من الأولى ، فعرفنا أن السفينة قد انقسمت إلى شطرين فنسينا ترددنا ورمينا الزوارق إلى الماء وقفزنا فوقها ، ثم جعلنا نجدف حتى اليابسة وقلوبنا عامرة باليأس من أن نصل إليها سالمين .

والواقع أن الموت قد اختطف نصفنا فوراً ، إذ أن الزورق الذي يركبه هؤلاء لم يستطع الابتعاد عن الدوامة التي نجمت عن غرق السفينة ، وفي لمحة عين ارتفع الموج عالياً وغاص بهم إلى الأعماق ولم يظهر منهم أحد .

فصرخنا مرعوبين ، لكن حالتنا لم تكن أفضل منهم ، وكنا واثقين من اللحاق بهم ، فانطلقنا نحو الشاطئ كمن يمضي نحو منصة الإعدام ، وكلما اقتربنا منه تبين لنا أنه أشد خطراً من البحر الهائج .

بعد أن جدفنا ، أو بالأحرى دُفعنا حوالي فرسخ ، لحقت بنا موجة هائلة وضربتنا ضربة قاضية ، وما إن هوت علينا حتى

أغرقت الزورق بضربة واحدة وفرقتنا بعضنا عن بعض وغرقنا جميعاً .

كنت أجيد السباحة ، وما إن مرت لحظة الدهشة والذعر حتى ارتفعت فوق سطح الماء ، وحبست أنفاسي كما يفعل الغواصون ، وحين ابتعدت الموجة أدركت أني نجوت من الهلاك .

ولكن الكفاح لم ينته بعد ، فكانت الأمواج الهائلة ترتفع بي كالجبال ، ثم تهوي إلى الأعماق كأنني دمية بين يدي طفل ، وكان البحر يلهو بي فما إن أصل إلى الشاطئ حتى يجذبني الموج إليه ، وقد فعل هذا عشر مرات ، وكأنه وحش ضارٍ لا يريد التخلي عن فريسته ، وكنت منهكاً فاقد الأمل ، أرى النجاة أمامي ثم تغيب عني ولا قدرة لي على فعل شيء .

وأخيراً ، تقدمت موجة أعظم من سابقاتها ورمتني بعيداً إلى الشاطئ ، فجمعت كل قواي وتمسكت بالرمل وتخلصت من ارتداد الموج ، ثم صعدت أحد المنحدرات وتهالكت عليه .

لقد نجوت من الهلاك ، وأصبحت بعيداً عن متناول البحر المحيط .

الفصل الثاني
الأيام الأولى

بعد أن بقيت ساكناً عدة ساعات نهضت أتمشى على الشاطئ ، ماذا كنت آمل أن أجد ؟ أحد رفاقي ؟ ولكني متيقن من هلاكهم جميعاً ، وأثناء صراعي مع الموج لم ألمح شبح إنسان أو قطعة حطام لزورق ، كنت الناجي الوحيد من هذا الغرق ، وكان البحر يهدر من حولي يذكرني بهذه الفاجعة .

وجهت بصري نحو مكان السفينة الغارقة ، فوجدتها هناك مهجورة ، وبكيت لموت هؤلاء الرجال الشجعان الذين لم يثقوا بصلابة هذه السفينة وإلا لكانوا الآن من الناجين .

وأخيراً ، كفكفت دمعي وتلفت حولي لأعرف الحالة التي أنا فيها ، كنت مبلل الثياب ولا ملابس بديلة لدي ، ولا طعام عندي ولا ماء ،ومما زاد الأمر سوءاً أن الظلام قد اقترب ، ولا سلاح لدي أدافع به عن نفسي إذا هاجمني حيوان مفترس .

كنت بين أمرين أحلاهما مر : أن يفترسني وحش أو أموت جوعاً ، ولم يكن معي سوى سكين وغليون وقليل من التبغ في علبة ، تلك هي زوادتي ، ولا أعتقد أن أحد المغامرين قد واجه أرضاً غريبة بمثل هذه الأدوات .

ماذا سأفعل ؟ يجب علي أن أشرب أولاً لكي أطفئ هذا الظمأ والحرارة الناتجة عن الحمى ، وعلي أن أنام بعدها لأن جفنيَّ ينطبقان رغماً عني ، ولكني لن أخلد إلى الراحة إلا إذا شعرت بالأمان .

وعزمت على النوم فوق غصن شجرة أربط نفسي إليها بحزامي ، فتلك هي الراحة الوحيدة المتاحة لرجل لا يملك وسيلة للدفاع عن نفسه .

ما زلت أمشي على الشاطئ حتى وجدت الشجرة المطلوبة ، وكانت كثيفة الأوراق متشابكة الأغصان وجذعها مملوء بالعقد والأشواك ، والواقع أن صعودها صعب علي ، ولكن يحميني من الحيوانات المفترسة .



وفيما كنت أتأمل هذه الشجرة خطر لي خاطر وهو أن هذه الشجرة لا تكون على مثل هذه الضخامة والاخضرار إلا إذا ارتوت ، ولا أظن أن مياه الأمطار ترويها . وقلت لنفسي : " لا بد أن يكون نهر قريب من هنا " . وبعد دقائق من البحث وجدت نهراً يتدفق عبر المروج القريبة ، فشربت حتى ارتويت وانتعشت ، ثم رجعت إلى شجرتي فجلست بين مجتمع الأغصان .

نمت دفعة واحدة حتى الصباح ، ولم أتمتع بمثل هذه الراحة منذ وقت طويل ، وقد نسيت رعب الغرق واستسلمت لأحلام غريبة رائعة .

حين استيقظت ، كان أول شيء فعلته أن نظرت إلى البحر قبر رفاقي البائسين ، وبحثت عن حطام سفينتنا ، واستمسكت بأحد الأغصان لئلا أسقط من الدهشة .

أثناء الليل هدأت العاصفة تماماً واستقر الماء حتى كأنه بحيرة ساكنة ، وعلى مسافة ميل من الشاطئ كانت السفينة جاثمة على الرصيف الصخري وقد دفعها الموج إليه ، وهي تبدو كأنها سالمة لم تتحطم . ثم هبطت من الشجرة .

تأكد لي أني إذا انتظرت ساعة أو ساعتين حين تبدأ حركة الجَزْر فإني أستطيع الوصول إلى السفينة مشياً على اليابسة ، ولكن لهفتي للوصول إليها وإنقاذ ما أمكن من المؤونة والمعدات قد دفعني إلى الارتماء في الماء بعد أن نزعت ثيابي الثقيلة ، وما إن سبحت عدة أمتار حتى تناهى إلى سمعي صوت حيوان متوحش ، فرجعت إلى اليابسة وقد أمسكت بسكيني استعداداً للدفاع عن

نفسي ، ولكن الصوت لم يكن صادراً عن البر بل عن البحر ، فهل يكون حيواناً بحرياً لم أره من قبل ؟

أصغيت بانتباه .. ثم انفجرت ضاحكاً .

لقد كان هذا الحيوان " باف " الكلب الذي صحبنا في السفينة ومعه " فون " القطة البيضاء التي أرعبت الفئران وعقدت صداقة وثيقة مع الطباخ ، وقد هجرانا مع المركب فهما يرفعان صوتهما بالنداء بحثاً عنا ، فرجعت إلى السفينة سابحاً وأنا أقول لنفسي :

" يا لهما من حيوانين بائسين ! لقد أنقذهما نسياننا لهما ، ولعل القدر الذي شاء لهما الحياة ، هو الذي رمى برفاقي في أعماق البحر ، فهل تكون الغريزة أقوى من العقل ؟ " .

ما زلت أسبح حتى وصلت إلى المكسر الحجري وحطام السفينة عليه ، فتعلقت بحبل يتدلى بارتفاع السفينة وصعدت إليها .



جرى إلي باف مرحباً ، وبعد اللقاء الحميم ، نزلت إلى العنابر أتفقد المؤونة .

كانت المؤونة سليمة . ولاريب أن هيكل السفينة قد تحطم وتسرب إليه الماء ، ولكن المؤونة وبرميلين من البارود بقيت على

حالها ولم يصل إليها ماء البحر ، ففتحت علبة من البسكويت وجعلت ألتهمها وأرمي إلى الكلب والقطة ببعضها ، وبدأت أفكر بما يجب عليّ ان أنقله من السفينة إلى البر ويكون عظيم الفائدة لي .

أفرغت كيس بحارة من الثياب ثم ملأته بكل أنواع المؤونة : من بسكويت ورز وجبن هولندي ولحم مجفف وشيء من القمح كنا نرمي به إلى الدجاج في بداية رحلتنا . كما وجدت كمية من الشعير وقد أكلت بعضه الفئران فكدت أرميه جانباً ، ولكن أضفته إلى مؤونتي .

في كيس آخر وضعت معدات النجارة التي كان اكتشافي لها يعادل سفينة مملوءة ذهباً ، وأضفت إليها بندقيتين ومسدسين وبعض البارود والخردق وسيفين قديمين ، واستكملت مؤونتي هذه ببرميلي البارود وصندوق مملوء بالزجاجات .

كانت (فون) جالسة فوق أحد الكيسين تلحس مخالبها و (باف) يحدق بي وكأنه يقول :

" ماذا تنتظر لترحل ؟ لقد حان الوقت " .

فأجبته بصوت مرتفع :

- نعم يا باف ! سنرحل ولكننا ننتظر مركبتنا .

اخترت من بين الأدوات فأساً ومنشاراً وبدأت أصنع طَوْفاً ، ولكنه طوف غريب الشكل ، إذ كان يلزمني الوقت لإتقانه ، وقد جمعت بعض حطام الصواري والألواح بعضها إلى بعض وربطتها بإحكام ، وتبين لي أنه تطفو باتزان .

حملت مؤونتي على ظهري وأنزلتها إلى الطوف بواسطة حبل ، وناديت باف فقفز إلى الطوف وجلس فوقه هادئاً ، وأما فون فلم أكن واثقاً من هدوئها ، فوضعتها في كيس وربطته ووضعتها على الطوف . كان الطوف متوازناً يتحمل المؤونة وثقل رجل وحيوانين معه ، واستخدمت للتجديف مجدافاً كان ملقى في أحد العنابر ، واستفدت منه كثيراً ، وساعدني على النجاح ثلاثة أمور :

أولها : البحر الساكن ، وثانيها : المد الذي لم يكن هائجاً ، وثالثها : الريح التي كانت تهب باتجاه اليابسة . هتفت للسفينة : " حفظك الله " وأنا أبتعد عنها بضربة مجداف قوية . ووصلت إلى

الشاطئ بعد عذاب طويل ، وكدت أغرق مع حمولتي لولا لطف الله ، ولو حدث هذا لمت حزناً ، لأن فوق الطوف أسباب حياتي ووسائل بقائي والدفاع عن نفسي في هذه الأرض المجهولة ، ولكن تولاني الله بعنايته ، ووصلت إلى الشاطئ سالماً ، وإن كنت بعيداً عن موضع إقامتي الأولى ، وأرسيت عند مصب نهر لم ألحظه من قبل ، وكانت رماله الناعمة تتيح لي الاستفادة من المد مرة ثانية ، لأنه يدفع الطوف إلى داخل البر دفعاً رفيقاً ، فانتظرت عودة المد ، ووجدت نفسي بعد ساعات داخل اليابسة ولا خطر على الطوف من الغرق ، وأستطيع أن أفرغه من المؤونة كما أشاء .

نقلت حمولتي الثمينة إلى الشاطئ بعيداً عن المياه ، ورتبتها داخل صخرة ، ثم أخرجت فون من الكيس فأطلقتها مع باف بعد أن قدمت إليهما بعض الطعام ، وعزمت على أن يكون نهاري هذا مخصصاً لاكتشاف المنطقة ، وأن أجد موقعاً يناسب إقامتي وأخفي فيه أدواتي ومؤونتي لئلا ينالها الفساد .

تناولت بندقية ومسدساً وما يحتاجان من البارود والخردق وانصرفت إلى الاكتشاف ، وكان هدفي من هذه الجولة ذروة جبل مرتفع أستطيع من أعلاها أن أطل على المنطقة بأسرها .

فهل هذه المنطقة جزيرة أم متصلة بالعمران ؟ هل هي مأهولة أم لا ؟ وهل هناك خطر من مهاجمة الوحوش لي ؟

كانت هذه الأسئلة تطوف بخاطري ولا بد أن أجد الجواب عليها .

بعد أن وصلت إلى أعلى الجبل مرهقاً تلفت حولي فأطلقت صرخة أسف وحسرة ، إذ أنني فوق جزيرة مثلثة الشكل قاعدتها نحو الجنوب ، وبعيداً في المحيط تظهر بعض الصخور السوداء .

حين أبصرت هذا المحيط الذي يلتف حولي من كل جهة وكأنه جدران سجن امتلأ قلبي بالحزن واليأس ، وارتميت على ركبتيّ فوق القمة العالية المتوحدة أعض كفيّ من القهر ، وأنا أضرب الأرض وأطلق صرخات الأنين ، وسرعان ما تغلبت على هذا الحزن الداهم ووقفت على قدمي وأنا أقول لنفسي :

" كيف أنكر رحمة الله بي وإحسانه إليّ إذ جنبني عذاب الموت جوعاً بما يسّر لي من أسباب الحياة ؟ هيا .. فلأرجع إلى الطوف ، ولعل أمامي أياماً هانئة ما تزال ".

فحملت بندقيتي بيدي وهبطت الجبل بخطوات سريعة ، وسلكت طريقاً مختلفاً عن طريق الصعود لكي أطّلع على معالم هذه الجزيرة المجهولة .

والواقع أن هذا الطريق الثاني يمر بجانب هضبات عامرة بالأشجار وسهوب تنمو فيها الأعشاب ، فأعاد إلي منظرها الأمل في الحياة ، فلن ينقصني الخشب للتدفئة ولا الفواكه للتغذية ، وقد وجدت من بين هذه الأشجار أشجار فاكهة البرتقال والليمون والكاكاو ، وأما الطيور فكثيرة لأني لمحت أسراباً منها ترتفع في الهواء ، وأردت أن أجرب قدرتي على التصويب فأطلقت النار على طائر منها فأسقطته ، وجرى باف يحمله إليّ ، وكان طائراً شبيهاً بالعقاب ، ولم أجد لحمه طرياً فرميته بعيداً ، ثم خطر لي أن أستخدم لحمه طُعماً في صنارة صيد الأسماك فحملته ومضيت إلى الطوف .

انقضى النهار فشعرت بالجوع والتعب ، فأكلت قطعة بسكويت واقتسمت الثانية مع صديقيّ الكلب والقطة ، ثم نمت

داخل شجرة والبندقية في متناول يدي معتمداً على غريزة باف في الإحساس بالخطر ..

كانت ليلة هادئة .. وحين استيقظت صباحاً وجدتني في حالة رائعة ، قررت زيارة السفينة مرة ثانية لعلني أستنقذ من الحطام بعض الألواح والحبال والأشرعة فأصنع منها بيتاً أو خيمة على الأقل ، كما عزمت أن أهبط إلى العنابر فربما وجدت بعض المؤونة الصالحة لمعاشي .

سبحت إلى السفينة حينما ارتفع المد وتمسكت بالحبل وصعدت إلى ظهرها وبدأت تحرياتي ، وأول ما فعلته أن جمعت بعض الألواح وصنعت منها طوفاً أمتن وأخف من الطوف الأول ، وجعلت فوقه ما وجدت من الأشرعة وأكياس البحارة لأصنع منها ثياباً ، وشبكةً على شكل سرير وعدة أكياس من المسامير والبراغي وعشرة فؤوس ومشحذاً استفدت منه كثيراً فيما بعد ، وبرميلين من رصاص البنادق وثماني بنادق إحداها بندقية صيد وكيس بارود وثلاث رافعات من حديد .

انتظرت المد ورميت فوقه الطوف ، ووصلت إلى اليابسة سالماً مع معداتي ، فاستقبلني باف فرحاً وتغدينا معاً .

أمضيت النهار في إقامة خيمة بواسطة الشراع الكبير الذي جلبته معي .

وغرزت عميقاً في الأرض قطع الصواري التي صنعت منها طوفي الأول ، وربطت أطرافها بحبال بحيث غدت خيمة شبيهة بخيام الهنود الحمر ، وثبّت أجزاءها السفلى بالبراميل والصناديق الفارغة .

رتبت المؤونة والأسلحة تحت الخيمة ، ثم صنعت سريراً لي ، وتعشيت داخل هذا المسكن الجديد فشعرت بالأمن والسكينة فيه .

وحجزت مدخل الخيمة بأغصان الأشجار ، ورقد باف على قطعة قماش ، وجلست فون تحت قدمي ، ونمنا نوماً عميقاً .

من الغد والأيام التالية عليه انتهزت فرصة استمرار هذا الطقس الجميل والبحر الهادئ لأنقل من السفينة كل ما يمكن نقله من أخشاب وحبال وأشرعة وقطع حديد ، حتى أصبحت

خيمتي مستودعاً حقيقياً ، وكم كانت فرحتي عظيمة حينما اكتشفت في إحدى جولاتي صندوقاً كبيراً من البسكويت وصندوق سكر وبرميل طحين مما زاد من مؤونتي !

وأخيراً ، توجهت إلى حجرة القبطان ، وفتشتها فوجدت فيها موس حلاقة ومقصاً كبيراً وطقماً من الشوك والسكاكين ومبلغاً كبيراً من المال .

نظرت إلى القطع الذهبية وقلت :

" أيها الذهب البائس ما نفعك الآن ؟ إن قطعة صغيرة من قماش أو مسماراً صدئاً لخير لي منك ، ولا تستأهل أن أنحني لالتقاطك ".

عدت إلى الشاطئ مسرعاً لأن علائم عاصفة مقبلة قد لاحت في الأفق ، واستيقظت صباحاً لأجد البحر هائجاً وأن السفينة التي ضربها الموج وكسرت أنا أيضاً ألواحها قد اختفت .

وقد أسفت لغرقها ، ولكنّ عزائي أني نقلت منها كل ما يمكن أن يفيدني ، وعزمت على نسيانها والتفكير في بناء مسكن

متين بدلاً من خيمتي هذه ، فقد يفاجئني الشتاء وأنا لم أبن هذا البيت بعد ، وقد يفسد مؤونتي ويتلف معداتي .

وضعت عدة شروط لاختيار موقع البيت هذا :

أولاً : قربه من الماء وسهولة الحصول عليه ، ثانياً : أن يكون بعيداً عن حر الشمس ، ثالثاً : أن يكون بعيداً عن المخلوقات الضارية من حيوان أو إنسان ، رابعاً : أن يطل على البحر لأرى السفن إن اجتازت بهذا المكان من المحيط .

كنت أبحث عن موقع تتوفر فيه هذه الشروط ، فوجدت سهلاً منبسطاً تحت قدمي هضبة مملوءة بالصخور منحدرة بشكل عمودي ، وتحت هذا المنبسط من الأرض كهف حفرته الطبيعة جذب انتباهي إليه .

قلت لنفسي :

– لقد وجدته ، سأحفر هذه الصخرة أكثر لكي تصبح مغارة حقيقية أضع فيها مؤونتي بعيداً عن الرطوبة ، وقد ألجأ إليها أيضاً إذا اشتد هطول المطر ، ولا أعرف شيئاً عن طقس هذه الجزيرة ، ولكن ينبغي لي أن أتوقع أسوأ الأحوال ، وفوق هذا

المرج الممتد حوالي مئتي متر طولاً وعرضاً سأنصب خيمة متينة تتصل بالمغارة من مدخلها الخلفي ، ويكون البحر على مرمى النظر دون أن أتحول من مكاني ، ولن ينالني حر الشمس إلا صباحاً . الموقع ممتاز ولن أبحث عن سواه .

وانصرفت إلى العمل دون تأخير .

عمدت أولاً إلى رسم نصف دائرة أمام المغارة قطرها أربع وعشرون قدماً ، وغرزت على مسافات متقاربة أوتاداً متينة من خشب الصواري وجذوع الأشجار ترتفع عن الأرض حوالي سبع أقدام ، وربطت بينها بألواح ثبتها بالمسامير ودعمتها بأوتاد أخرى كأنها الجدران ، وأحطت هذه الجدران بصخور انتزعتها من المغارة لكي أوسعها ، وأخفيت هذا البناء كله تحت أغصان الشجرة المتشابكة التي زرعتها في الأرض ، بحيث ارتفعت عالياً في السنة التالية وكونت دغلة خضراء تحجب المسكن كله عن أنظار الإنسان والحيوان المفترس .

بعد أن أنهيت هذا المسكن المرتفع عن الأرض أحسست بالأمان ، وكان يلزمني للصعود والهبوط سلم متين ، فصنعت

سلماً صلباً أهبط عليه ، فإذا جاء الليل جذبته إلى أعلى فاستحال الدخول إلى مسكني .

استغرق هذا العمل أسابيع عديدة ، ولم أكن ماهراً في استخدام الأدوات بادئ الأمر ، وجرحت أصابعي وآذيت نفسي ، ولكن سرعان ما تعودت العمل بفضل المثابرة ، وأتقنته وتأكد لي أن الحاجة أم الاختراع .

عشت خلال أسابيع العمل كلها على المؤونة التي كدستها في المستودع وجلبتها من السفينة ، وأجلت قضية الصيد والتجوال في الجزيرة ، لأني كنت منصرفاً إلى الحصول على ملجأ آمن ومسكن مريح قبل حلول فصل العواصف والأمطار .

نقلت إلى داخل هذا الحصن كل مؤونتي وسلاحي وأدواتي ورتبتها داخل المغارة ، ثم بدأت بإتقان ما صنعته ، فكسرت الزوائد من الأغصان وأحكمت إغلاق الألواح وثبت عليها ألواحاً أخرى تزيد من حمايتي من الأمطار والعواصف الشديدة .

من الأنابيب التي أخذها من مطبخ السفينة صنعت مزراباً فوق سطح مسكني ، وكان السطح من الخشب المغلف بالقماش الذي أذبت فوقه بعض القطران فأصبح أملس صلباً .

وبنيت داخل المسكن مخدعاً جعلت فيه سريري ، ورتبت أكياس البحارة كالمخدات والمساند ، وصنعت عدة طاولات ومقاعد ، حتى لقد صنعت خزانة للملابس .

بمرور الوقت نصبت داخل المغارة – أو ما أدعوه المستودع – عدداً من الألواح الخشبية أجفف فوقها الخضار والفواكه ، وفرحت لأني انتشلت من طعام السفينة ما أمكنني من هذه الألواح .

وكلما هطل المطر أدخلت تعديلات على هذا المسكن أو على أثاثه ، حتى غدا مريحاً لا يحتاج إلى شيء .

اتخذت القطة " فون " مسكنها فوق كومة من الأغطية الاحتياطية داخل المستودع ، وكانت ذات فائدة عظيمة لي ، إذ أنها حمت المؤونة من القوارض المنتشرة في ذلك المكان وأوقعت بها هزيمة منكرة .

وأما باف الذي لا يفارقني فكان يقتسم معي المنافع التي يفيض بها المطبخ علينا .

لقد كان عزائي في وحدتي وعزلتي المؤلمة هذان الصديقان الوفيان اللذان اقتسما العيش معي ، وكم من مرة وجدت نباح باف حواراً طويلاً أستمتع بالإصغاء إليه .

الفصل الثالث

تفاصيل حول إقامتي

كانت أولى مشاغلي ، حتى قبل بناء البيت ، معرفة حساب الأيام والشهور ، وقلت لنفسي إن تتابع الأيام والأسابيع والشهور والأعوام سوف يختلط علي حتى أنسى مفهوم الوقت وأغفل عن معنى الزمن .

لذلك نصبت في مكان قريب من مسكني عموداً أحزّ فيه بسكيني خطاً يدل على اليوم ، فإذا اكتملت الأيام شهراً صنعت خطاً طويلاً ، وبذا أكون على معرفة بعدد الأيام التي أقضيها في هذه الجزيرة المهجورة .

وكتبت فوق العمود هذه العبارة :

" وصلت إلى هنا يوم 30 أيلول 1659 "

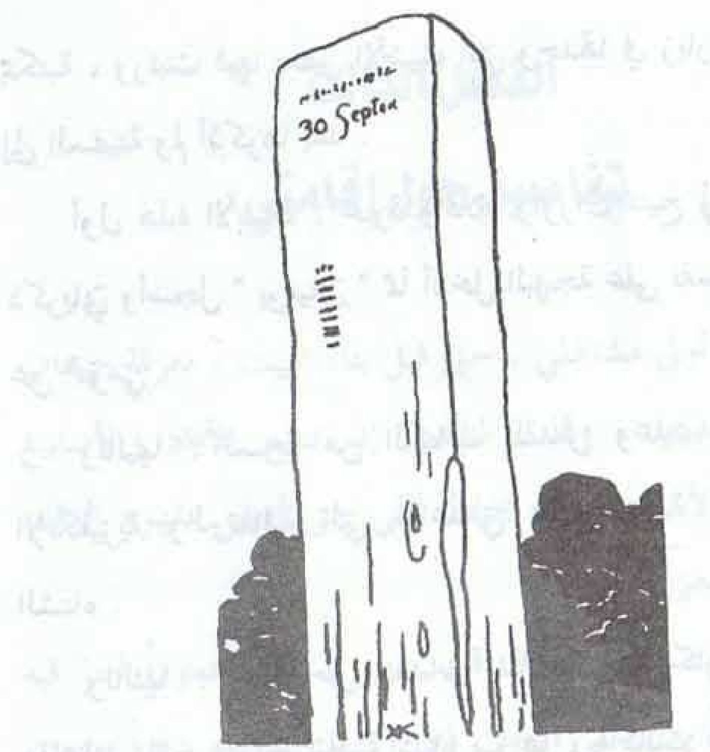
وعلى الرغم من مرور الأيام وتعاقب السنين فإني كنت أتحسر كلما قرأتها . نسيت أن أقول إنني قد زودت مسكني

بمكتبة ، ورتبت فيها بعض الأشياء التي وجدتها في زيارتي الأخيرة إلى السفينة ولم أذكرها بعد .

أول هذه الأشياء : محبرة وأقلام وأوراق تتيح لي أن أدوِّن ذكرياتي وأسجل " يومياتي " مما أدخل البهجة على نفسي وشغلني عن همومي .

وثانيها : نسخة من الكتاب المقدس وعدد من الكتب الإنكليزية والبرتغالية التي ساعدتني على تزجية الوقت أيام الشتاء .

وثالثها : عدد من معدات الملاحة كالبركار والبوصلة والمنظار المقرب والخرائط وأشياء سواها ، وكانت هذه الأخيرة ذات فائدة عظيمة لي في جزيرتي ، وقلت لنفسي إني إذا ركبت البحر ثانية آمل ألا أنسى ما تعلمته عن أصول الملاحة ، ولذلك كنت أنكبّ على هذه الكتب والخرائط في الأيام الممطرة وكأنني قبطان سفينة يخوض غمار البحار .



بعد أن أنهيت بناء الكوخ والبيت وأعددت المغارة وجدت من واجبي أن أعتني بصحتي فقد أتعبني العمل المتواصل ، فكنت أتنـــزه كل يوم وأروّح عن نفسي .

كنت شاباً في الخامسة والعشرين مكتمل العافية أتحمل التعب ، ولكني أخشى أن أتعرض إلى حادث ما في عزلتي هذه ، فحرصت على أن أكون حذراً شديد الاحتياط أكثر مما كنت في

مكان آخر من هذه الأرض ، وشرحت لكلبي باف وجهة نظري فقلت له :

– أتعلم يا باف ، إني حطاب وبحار وصياد ومزارع وصائد سمك وطباخ ، ولكنني لست طبيباً ، ولسوف أقع في حرج شديد إذا أصيب الحطاب بمكروه أو الصياد أو الطباخ ، ولذا من واجبي أن أحرص على " الصحة العامة " بكثير من الحذر ، فهل توافقني على ذلك ؟

ونبح باف معلناً عن اقتناعه .



بدأت أنظم أوقات عملي وأوقات راحتي ، ولم أخالف هذا النظام أبداً ، فإذا كان الجو صحواً خرجت صباحاً أحمل بندقيتي

ويتبعني كلبي وأصيد ساعتين أو ثلاثاً ، ثم أعد الطعام وأتناول الغداء .

وحرصت على تنويع غذائي لكي أتخلص من العياء الذي يصيب الإنسان المنفرد الذي يأكل وحده ، ولحسن الحظ أني كنت أعيل صديقين لي لا يقنعان بقطعة بسكويت يلتهمانها على عجل ، وكنت أُعد وجبة حقيقية آكلها على الطاولة ، وحين يكون صيد السمك أو قنص الطيور وفيراً ينقلب الحال إلى حفلة عامرة .

وأنام من الساعة الثانية عشرة إلى الساعة الثانية بسبب الحر الشديد ، ويرقد باف غير بعيد عني ، فكنت أنام قرير العين معتمداً على غريزته وإحساسه بالخطر ، وأقضي بقية النهار في العمل ، فإما أن أرتب الأشياء أو أصلح المنــزل ، ثم أتعشى وأتنــزه على الشاطئ قليلاً وأرجع لأنام .

وحرصت على الراحة أيام الآحاد لئلا أحس بانقطاعي عن الحضارة ، ولكي أمنح نفسي شيئاً من الانتظام ، وقد خصصت يوم الأحد عموماً للغسيل وإصلاح الثياب .

ولم يكن لدي صابون وإنما أستخدم الرمل في تنظيف ملابسي ، ولم تكن لدي إبرة أستخدمها ، لذا فإن البقع لا تزول ، وإذا تمزق ثوب لا يمكن ترقيعه .

وبفضل المثابرة استطعت ان أصنع سلة من الخشب تساعدني على القيام ببعض " أعمال الخياطة " ، ولم تكن خياطة محكمة ولكنها تفي بالغرض .

حين هاطلت الأمطار تبين لي أن سقف المنــزل المستوي لا يتيح لها أن تسيح على الأرض ، فاضطررت إلى إعادة تركيبه وجعله مائلاً لئلا ينهدم السقف فوق رأسي ، ولم أعد أخشى هذه الأمطار .

بعد أن استقر بي المقام ظهر لي أني محتاج إلى النور ، فما إن تغيب الشمس حتى أخلد إلى النوم ، ولكن كيف أحصل على الشمع ؟

وقلت لنفسي إن الغابة عامرة بالطرائد ذات الريش ، كما إن فيها طرائد ذات وبر كالأرانب والقطط البرية والماعز ذات الفراء الكثيف ، فاصطدت بعضها لأنوع غذائي ، فكان لحمها

قاسياً كثير الدسم ، ففكرت باستخدام دسمها هذا لصنع الشموع وإضاءة البيت.

قلت لنفسي :

– لاريب أن دسمها لن يمنحني شموعاً من النوع الممتاز ولكنها تكفي لطرد الظلام بعد غروب الشمس ، والفلاحون في بلادي لا يستخدمون سوى هذا الدسم لصنع شموعهم ، ولم تكن حالي في عزلتي أفضل منهم.

وبدأت في تذويب الشحم والدسم الذي أستخلصه من لحوم الماعز وجعلته في علبة من القصدير كانت تستخدم لحفظ اللحم المجفف ، وحصلت على ضوء ينير ظلمات أمسياتي الطويلة ، وبمرور الوقت أتقنت صنع هذه الشموع وتفننت في تركيب فتائلها ولم أعد أنام غروب الشمس !

عزمت على صنع الفخار أيضاً ، لأن تراب الجزيرة ملائم لصنع الفخار ، فصنعت عدداً من الصحون والجرار والمواعين ، واخترعت لها أشكالاً تتناسب مع حاجتي إليها ، ثم عرضتها للشمس المحرقة حتى جف الصلصال وصلحت للاستخدام ، ومع

مرور الوقت أتقنت صنعها ، وامتلأت الحجرة بالآنية الفخارية ، حتى إن باف كان يشرب في أحدها ، ولم يُخفِ فرحه بها ، ولا أدري إن كان فرحاً بإنائه أو بما يحتويه !

وأستطيع القول إني قد اكتسبت مهنة جديدة ، ولا يوجد في الجزيرة أحد ينكر عليّ ادعائي .

أثناء قيامي بهذه الأعمال وجدت في قعر أحد الأكياس بعض الشعير والحنطة التي كانت طعام الدجاج على سطح السفينة ، ولكن الفئران قد أعملت فيها أسنانها ولم تعد تصلح لشيء ، فأخذت الأكياس لكي أستخدمها لغرض آخر ، ونفضتها أمام الباب لأتخلص من هذه الحبوب المنخورة .

وكنت قد نسيتها تماماً ، ولكن قبل حلول موسم الأمطار دُهشت إذ رأيت أمام الباب بعض النباتات تطل برؤوسها من الأرض ، وخُيل إليّ أنها بعض النباتات التي أجهلها ، وحين قويت سوقها وارتفعت في الهواء تبين لي أنها شعير من أفضل الأنواع .

فحصدت هذه السنابل بعد نضجها ، وجعلت أجمعها آملاً أن أصنع منها بعض الخبز ، ثم زرعتها لأزيد الغلة وتتوافر لدي

كمية كبيرة ، فكانت تجربتي الأولى قريبة من الفشل لأني حصدت كمية لا تزيد عما زرعته ، وأما زراعتي التالية فكانت قد تدعمت بالتجربة ، إذ اخترت لها الوقت المناسب واعتنيت بها كما يفعل الفلاحون ، فأضفت إليها السماد وحرستها من عبث الطيور ، واستطعت الحصول بعد أربعة مواسم على كمية كافية من الشعير ذي النوعية العالية تكفي لأصنع منها بعض الخبز من حين إلى حين .

وصنعت كذلك فرناً بدائياً من الصلصال ، ولكنه يفي باحتياجاتي ، وخبزت من الشعير كعكاً ممتازاً ، ولم أتقن صناعة الحلويات إلا بعد سنوات من التجربة والخطأ التي تحدث لكل خباز ماهر .

ذات يوم ، أُصبت بذعر هائل .

كنت متوجهاً إلى المستودع لأبحث عن بعض الأشياء ، فشعرت كأن الأرض تميد تحت قدميّ .. وارتفعت أمواج البحر إلى علو هائل وارتطمت بالمرج الممتد أمام مسكني فانهار سقفه ، وتدحرجت من الهضبة المجاورة صخور كبيرة استقرت أمامي .

ومما زاد في خوفي ذلك النباح الكئيب الذي يصدره باف وكأنما يستغيث ، وقفزت القطة فون فوق كتفي وهي مذهولة .

ارتعدت ساقاي خوفاً وتهالكت على مقعد أمام الباب ، وأنا أحسب خسارة هذا الزلزال الذي كاد يهدم الهضبة فوق مسكني ، وهذا البحر الذي قد يجرف المسكن كأنه قشة صغيرة .

ولم تتوقف الأرض عن الاهتزاز تحت قدمي ، واقشعر وبر القطة فون ، وكانت تهرّ بخوف عدواً لا تراه ، ونباح الكلب باف يصلني من داخل المستودع فيزيدني هلعاً .

وأخيراً توقف الزلزال ، ولم تتوقف أمواج البحر عن الهدير ولكنها ابتعدت إلى حدود الشاطئ ، ولم تعد الصخور تترامى من أعلى الهضبة ، فنهضت ورفعت حطام سقف المنـزل لكي أنجد الكلب باف .

ولم يكن باف لحسن الحظ مصاباً إلا ببعض الخدوش السطحية ، واقتصر الخراب على بعض الآنية الفخارية وذلك السقف المنهار ، وتكاسلت عن إصلاحه في الحال ، ولكني أمضيت أياماً طويلة في إصلاحه حتى عاد إلى ما كان عليه .

وحمدت الله أن خرجت من هذه الكارثة سالماً ، فقد كادت تكون أكثر هولاً ، وظللت مدة طويلة حذراً من زلزال جديد أتوقعه في كل آن ، وأحس بالأرض تتحرك تحت قدمي ، وخطر لي أن أنقل مسكني بعيداً عن هذه الهضبة التي قد تنهار فوقي وأنا نائم ليلاً ، ولكن الجهد الذي بذلته في بنائه والأمان الذي أحس به من خطر الوحوش المفترسة قد جعلاني أقلع عن هذه الفكرة .

وقلت لنفسي :

– ليكن أملي بالله تعالى عظيماً ، فقد حفظني وأتاح لي سبل الحياة ، ولا أحسبه يتخلى عني الآن ، ولسوف يثبت هذه الصخور في مكانها من الهضبة إن شاء الله لي الحياة .

وعمرت السكينة قلبي .

ذات صباح ، كنت عائداً من صيد وفير ، فلمحت على الشاطئ سلحفاة بحرية كبيرة ، ولم أكن قد رأيت مثلها في جزيرتي فسارعت أقطع عليها طريق العودة إلى البحر ، ثم قلبتها على ظهرها بعناء شديد لأنها كانت ضخمة ثم ذبحتها ، فوجدت فيها ستين بيضة ، وقسمت لحمها قطعاً كفتني مدة طويلة من الزمان ،

وأمضيت النهار في تنظيف درعها حتى غدا وعاءً لامعاً وضعته أمام البيت أخزن فيه الماء .

حين انصرفت إلى النوم أحسست ببعض الرعدة ، فحسبت أن سببها لحم هذه السلحفاة ، ولكن حين تأملت باف وفون وكيف التهما لحمها زال خوفي وتأكدت أن السلحفاة بريئة مما أصابني .



قضيت عدة أيام بين المرض والشفاء ، فكانت الحمى تزورني غِبّاً ، حتى أفقد قدرتي على الحركة وأحس باليأس والجزع من يومٍ لا أستطيع فيه النهوض من فراشي .

وكان باف يروح في الحجرة ويغدو وهو يرمقني حزيناً ، وكأنما يعبر عن عجزه لأنه لا يستطيع مد يد العون إلي .

وتذكرت أخيراً ، أن سكان البرازيل يستخدمون التبغ دواء للحمى ، فجعلت بعضه في منقوع ساخن وشربته ، ثم أخذت قبضة منه وأحرقتها وتنشقت دخانها ، وقبل أن أنام وضعت قطعة من التبغ في فمي أمضغها .

من صباح الغد وجدت نفسي أتماثل للشفاء ، واستيقظت الثالثة بعد الظهر وأنا أحس بجوع شديد ، وما زلت أعالج نفسي بالتبغ حتى برئت من تلك الحمى تماماً .

حين أبللت من مرضي عزمت على أن أقوم بجولة شاملة لجزيرتي أتعرف فيها على معالمها جميعاً ، وكنت قد أصلحت مسكني ولا سبب يدعوني إلى تأجيل هذه الجولة .

حملت بندقية ومسدسين وفأساً وصرة جعلت فيها بعض البسكويت زوادة للطريق ، وأغلقت باب المسكن بعناية وأخفيت السلم داخل الدغلة القريبة ، ثم صفرت لكلبي باف وابتعدت .

مشيت أولاً محاذياً الجدول الذي رسوت بطوفي قربه حين وصلت ، وكانت تمتد حوله حقول واسعة تنمو فيها نباتات التبغ الأخضر وقصب السكر البري ، وتوقعت أن أجد تلك الجذور التي يصنع منها الهنود الحمر خبزاً ، وخاب ظني ، وأسفت لجهلي بصفات هذه النباتات التي تنمو من حولي وخصائص استخدامها ، ولو كنت تعمقت دراسة العلوم الطبيعية لاستفدت منها في عزلتي هذه .

وتجولت بين هذه المروج والأعشاب والنباتات معجباً برائحتها العطرة وألوانها الزاهية ، وكانت أفضل نمواً من حقول البرازيل ، ولم يدهشني هذا لأن جزيرتي أقرب إلى خط الاستواء .

بعدئذٍ وصلت إلى منطقة متكاثفة الأشجار ، تلك التي أبصرتها من أعلى قمة الجبل ، ووجدت عدداً من الفاكهة وخاصة البطيخ المتوافر بكثرة والعنب المثقل بالعصير الناضجة حباته .

تعبت من التجول فقررت أن أستريح قليلاً وأتناول من أنواع الفاكهة المعروضة أمامي ، وأن أحمل منها إلى مسكني فأجففه وأحفظه إلى فصل الأمطار ، وقضيت ما بقي من نهاري في جمع العنب والبطيخ الأكثر نضجاً ، ونشرته على بعض الألواح وجعلت باف يراقبه ، ثم نمت نوماً عميقاً .



من الغد ، تناولت فطوري وانطلقت لاستكمل استكشافي هذه الجزيرة ، ومشيت بقرب واد يمتد من الشمال إلى الجنوب

على شكل كتل صخرية ، ولم أتعب إذ كنت أستظل بالأشجار ورطوبة النباتات .

بعد حوالي أربعة أميال توقفت أمام سهول فسيحة تنحدر بيسر ، ويقطعها جدول صافي الماء وقد ازدان العشب بأنواع الأزهار ، وعلى أغصان الأشجار تغرد الطيور بألف لحن ولحن .

وكان الجو منعشاً والهواء رقيقاً حتى إني شعرت كأني في الفردوس الذي طرد منه آدم وحواء .

وقلت لنفسي :

" كل هذه الطبيعة ملكي ، وأنا السيد المطلق عليها ، كأني لورد من لوردات إنكلترا ، ولم ينازعني هذه الملكية خلال شهور إقامتي إنسان أو حيوان متوحش ، يا رب ! ما أعظم كرمك ورحمتك بهذا الغريق البائس " .

وأدركت أني بنيت مسكني في الجزء الأجرد من هذه الجزيرة ، وعزمت على أن أبني لي مسكناً صيفياً في وسط هذه الأشجار المثمرة والسهول الخضراء ، وقلت لنفسي :

" ينبغي أن أقيم في منــزلي قرب المغارة ، إني ألفته وعرفت فيه السكينة والأمن ، ولا بد لي من مراقبة البحر لعل سفينة تمر بي وتنقذني في يوم من الأيام ، وإذا عكفت على ذاتي في الوادي فلن تتاح لي هذه الفرصة إن عرضَتْ ، ولكني سأبني فيه مسكناً أتردد إليه حين يعتدل الطقس " .

وبدأت بتنفيذ هذه الفكرة فوراً ، فقطعت بعض الأشجار وصنعت منها ألواحاً وأوتاداً ، وبنيت بيتاً بسيطاً وأحطته بدغلة تخفيه عن الأنظار ، وجلبت إليه شبكة أستخدمها سريراً وطاولة وكرسياً وبعض أواني الطبخ ، وصنعت له سلماً أصعد إليه به كما فعلت في بيتي الأول .

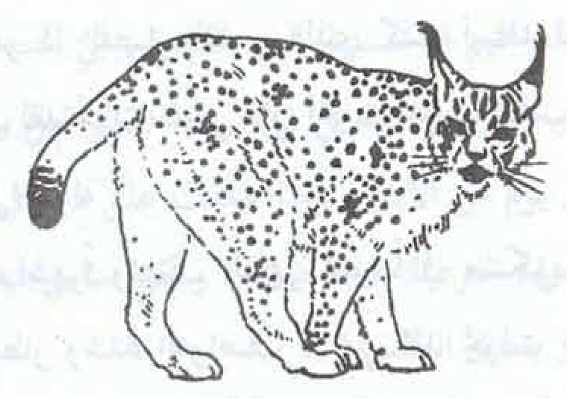
وعلقت على الأغصان المحيطة به كل الأعناب التي قطفتها ، إذ أردت لها أن تجف في المكان نفسه ، ثم يسهل علي نقلها بعدئذ إلى المستودع في المغارة . وخلال إنجازي لهذه الأعمال كان العنب قد جف كما أشتهي ، فكدسته في أكياس صنعتها من الأشرعة وحفظتها داخل المغارة ، وجلبت إلى المغارة أيضاً كمية كبيرة من البطيخ استعداداً لفصل الشتاء .

وها هو ذا الفصل القارس الذي كنت أستعد له قد أقبل فجأة ، حتى لقد هنأت نفسي لأني أنجزت تجفيف العنب وتكديس الفواكه قبل حلوله .

وبقيت شهراً ونصف الشهر محبوساً في مسكني لا أغادره لغزارة الأمطار وشدة العواصف ، حتى لقد تحولت الحقول إلى بحيرات كبيرة ، فانصرفت إلى إصلاح داخل مسكني وتحسين أحوال معاشي ، واستخدمت درع السلحفاة مصباً للمياه وخزاناً له بحيث لا أضطر إلى مغادرة المسكن بحثاً عنه .

وانتهزت فرصة مكوثي في البيت ، لكي أنحت بعض الأدوات الخشبية كالغليون والعكاز وسواهما ، وكنت أحتفظ بجلود الحيوانات التي أصيدها وخاصة جلد الماعز ، فصنعت منها قبعة وسترة وحذاء أيضاً .

وكان باف وفون خير رفيقين لي في اعتكافي الشتوي هذا ، بحيث لم أشعر بمرور الوقت ولم أحس بالسأم .



وما إن أقدر على الخروج حتى أخط على العمود عدد الأيام التي انقضت ، وحين حسبت الوقت المسجل عليه تبين لي أن الذكرى السنوية لتاريخ غرقي قد حانت ، لقد مضى ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً منذ وطئت قدماي هذه الجزيرة المهجورة ، ولا صاحب لي سوى كلبي وقطتي ، ولا معين لي بعد الله سوى عبقريتي .

الفصل الرابع
المملكة

بينت لي التجربة أن الفصول لا تنقسم كما في أوربا إلى صيف وشتاء ، بل إلى زمن المطر وزمن الجفاف ، وقد دونت على ورقة هذه الملاحظات ، فكانت عظيمة الفائدة لي في زراعتي الأرض وحصدي محصولها :

منتصف شباط	أمطار
آذار	الشمس بازغة
منتصف نيسان	الاعتدال
منتصف نيسان	
أيار	جفاف
حزيران	الشمس شمالاً
تموز	
منتصف آب	الشمس عمودية

منتصف آب	
أيلول	أمطار ، انقلاب الشمس
منتصف تشرين الأول	
تشرين الثاني	جفاف
كانون الأول	
كانون الثاني	
منتصف شباط	انقلاب الشمس

إن فصل الأمطار يدوم طويلاً بحسب الريح التي تهب ، مما أدى بي بحكم التجربة والملاحظة إلى تنظيم عملي دون أخطاء فادحة ، وغدوت أكثر مهارة في صنع الفخار ، ورأيت أن النار أفضل من حرارة الشمس في تجفيف الصلصال ، فصنعت فرناً كبيراً من الطين يتيح لي صنع المزهريات والجرار والصحون من كل نوع وحتى مجاري المياه .

وقد فلحت قطعة أرض قريبة من مسكني في الوادي ، وركبت لها نظام سقاية يحميها من العطش زمن الجفاف ، وزرعت

فيها الشعير والقمح ، مما أتاح لي زراعة محصولين في السنة والحصاد مرتين في السنة ، وتجمعت لدي غلال كثيرة .

ووجدت صعوبة كبرى في منع الأرانب والماعز البري من رعي هذا القمح والشعير النامي ، فاضطررت إلى إحاطة الحقول بسياج من الأغصان المتشابكة ، وكنت أطلق النار نهاراً على هذه الحيوانات الفضولية ، وأربط كلبي إلى عمود بقرب الحقل ليلاً ، فينبح ويطردها عنه .

واجهت بعد الأرانب والماعز أسراب الطيور ، وكنت معجباً بغنائها وتغريدها ، فانقلبتُ أعدى أعدائها لأنها تهبط بأعداد كبيرة وتنقر الحب الذي أنثره ، وكانت كل حبة أنثرها رغيفاً أحصده وقت نضجه .

وأخيراً خطرت لي فكرة مرعبة ، وهي أن أصطاد عدداً منها ، وأعلقها على الأعمدة بحيث تراها الطيور الأخرى ، فكانت فكرة ناجعة لم تطرد الطيور عن حقلي فحسب ، بل إنها هاجرت من هذا الجزء من الجزيرة ، ولم أعد أرى طائراً واحداً يحوم فوق الحقل ما دامت هذه الفزاعات معلقة .

وكنت أحصد السنابل بسكيني ، وأنفضها بيدي على حجر ، ثم أهرسها في جرن حفرته داخل قطعة حطب صلبة ، وإذا أردت فلاحة الأرض استخدمت مجرفة صنعتها من ذلك الخشب الصلب ، وأجر ورائي غصن شجرة كبيراً . لقد كانت الصعاب عظيمة ولكن همتي وإرادتي واجتهادي قد تغلبت عليها جميعاً .

كنت أقول لنفسي : " إن الناس لا يفكرون في العمل اللازم لزراعة حفنة قمح ورعايتها وحصدها وهرسها وإنضاجها لتكون رغيفاً يوضع على مائدتهم " .

أعددت للموسم القادم قطعة أرض أكبر من الأولى وفلحتها ، وأحطتها بسياج يحميها من الأرانب والماعز ، وأقبل موسم الأمطار وما كدت أنتهي من عملي ، فدخلت مسكني ، وانشغلت داخل البيت ببعض الأمور ، وكنت قد أمسكت في إحدى نزهاتي بجدي صغير كسر كلبي رجله وهو يهاجمه ، وقد انتزعته من بين أسنان باف ، وبعد أن عالجته ، ربطته في المغارة ، وكنت أطعمه يوماً بعد يوم ، حتى استأنس بي وأصبح يستجيب

لندائي ، ومن نافلة القول أن باف قد احترم اختياري وعقد صداقة مع هذا الوافد الجديد .

أما الحيوان الآخر فكان ببغاء ، كنت قد أطلقت عليه الرصاص ، ولكن لم يُصب بأذى كبير ، وصنعت له قفصاً من الخيزران وحبسته فيه ، وانصرفت أثناء موسم الأمطار إلى تربيته وتعليمه الكلام ، وسميته " بول " ، فكان قادراً على النطق باسمه واسمي بكل فصاحة ، فكنت أستمتع بصوته لأني لم أسمع منذ زمن طويل سوى صوتي .

وعاملت بول بكل لطف وحنان ، فاستجاب لي ، ولأنه حيوان ذكي غدا رفيقاً حقيقياً لي .

أثناء موسم الأمطار هذا تضاعف عدد أفراد عائلتي بشكل كبير لم أتوقعه .

لقد اختفت فون منذ شهر تقريباً ، وناديتها وبحثت عنها دون جدوى ، حتى سمعت ذات صباح مواءً متواصلاً في الطرف الثاني من المسكن ، فسارعت إليها مبتهجاً فوجدت معها ثلاث قطيطات تموء بصوت نحيل .



والواضح أنها تعرفت على قط بري من هذه القطط المنتشرة في الجزيرة ، وجاءت إلي بعائلتها لكي أتكفل بها .

وعلى الرغم من عدد هذه الأفواه التي ينبغي إطعامها ، كنت أتسلى بتقافزها من حولي ، ولهوها الممتع أثناء موسم الأمطار .

ومع توالي الأعوام ازداد عدد أفراد عائلة فون حتى اضطررت إلى طرد الكثير منها .

في السنة الثالثة من عزلتي وجدتني حاكماً على شعب كثير العدد ، وقد أنشأت حظيرة أربي فيها الحيوانات وأحطتها بسياج ، وأسرت أربعاً من الماعز وتيساً ووضعتها فيها ، ولم أجد صعوبة في أسرها ، إذ حفرت في الأرض حفرة وغطيتها بالأعشاب كما يفعل الهنود الحمر ، فسقطت فيها .

نظرت ذات يوم إلى هذا القطيع الذي ربيته فشعرت بالفخر والارتياح ، ووصلت إلى النتيجة التي كنت أصبو إليها ، فقد استطعت الحصول على الحليب ، ونوّعت بذلك مصدر غذائي من قمح وزبدة وقشدة ، وحافظت على صحتي من الأمراض .

بعد أن حققت رغبتي في الحصول على قطيع ، خطرت لي رغبة أخرى ، إذ قمت برحلة استكشافية ثانية لمعرفة الجانب

الآخر من الجزيرة ، ومشيت بقرب الشاطئ ساعات عديدة ، فوقعت على عدد كبير من السلاحف وأنواع عديدة من الأصداف لا أعرفها .

ولا ريب أن المصادفة قد رمتني على الجزء الأكبر جفافاً من هذه الجزيرة ، فحيثما توجهت وجدت أعشاباً ومروجاً وسواقي ، ولكنْ خُلِق الإنسان ألوفاً ، فكنت أفارق هذا الجزء القاحل من الجزيرة وأحس بالحنين إليه ، وكأنما أفارق الوطن الذي نشأت فيه ، فأسارع بالعودة إلى مسقط رأسي ! .

كنت أعتبر تلك الشواطئ البعيدة عن مكان إقامتي بلاداً أجنبية ، لا أسافر إليها إلا حين الحاجة ، وحينما كنت أتأمل الآفاق خيل إلي أني ألمح أرضاً بعيدة ، أهي جزيرة أخرى ؟ أم هو ساحل أميركا ؟ لا علم لي ، لأن الطقس الهائج لم يسمح لي أبداً برؤية ما وراء هذه الأمواج ، فمضيت إلى المستودع وبحثت عن المنظار المقرب الذي حرصت على إخفائه ، ورفعته إلى عيني وتجولت ببصري في الآفاق فرأيت خطاً من الخضرة والصخور .

هناك وجدت أناساً بشراً مثلي ، ومددت يدي نحو تلك الأرض البعيدة ، وفجأة جعلت أضحك وأهز كتفي تعجباً :

– بشراً مثلي ؟ أين مضى بي الخيال ؟ لئن وجد قوم يعيشون فوق تلك الأرض البعيدة ، فلن يكونوا سوى متوحشين أكثر فتكاً من الحيوانات الضارية أو النمور المفترسة في شواطئ إفريقيا ، ولا ريب أنهم آكلو لحوم البشر مثل تلك الأقوام التي تعمر ساحل الكاريبي ، وبدلاً من أن أمد يدي مستنجداً بأقوام يسببون لي المتاعب ، الأجدر بي أن أفرح لأنهم يجدون جزيرتي صغيرة أو بعيدة عنهم لا تستأهل العناء .

ورجعت إلى مسكني وقد أوليت ظهري لهذه الأرض التي بدأ الضباب يحجبها عني ، وانصرفت إلى مشاغلي وتناسيت ما أبصرت في البعيد ، ولكن لم أستطع .

– الأرض ، الأرض . هذه فكرة ترسخت في ذهني ، وتغلبت على احتمال أن يكون ساكنوها من آكلي لحوم البشر أو الحيوانات المفترسة ، ومحوت من خيالي كل المخاطر المحتملة ، وتركز تفكيري على الحرية المحتملة والاتصال بالحضارة .

ولم يعد يشغل فكري سوى الوسيلة للوصول إلى تلك الأرض المرعوبة ، لذلك كان ينبغي لي صنع زورق ، ولكن كيف أفعل وليس معي من أدوات سوى الفأس والمنشار والمطرقة ؟ ولو كانت هذه الأدوات بيد ماهرة لاختلف الأمر ، ولكني لم أصنع في حياتي سوى الألواح والكراسي والطاولات ، ولا قدرة لي على صنع زورق ، وداولت هذه الفكرة في رأسي مدة طويلة حتى عرفت أن ما يصلح لي جذع شجرة مجوف .

لم يبق أمامي سوى تجويف شجرة كما يفعل الهنود الحمر ، فعمدت إلى شجرة أرز فقطعتها بمشقة بالغة وبدأت عملي !

كم بذلت من جهد وسفحت من عرق في سبيل هذه المهمة ، وبعد ساعتين أو ثلاث من العمل أقلعت عنه ، إذ أن أمامي أشغالاً أخرى تؤخرني عنه ، وأمضيت سنة كاملة حتى أنجزت ذلك الزورق بتجويف الشجرة كما أريد .

أما إنزاله إلى الماء فكان مشكلة أخرى ، فاضطررت إلى حفر ساقية من البر لأسوق القارب إلى البحر ، ثم دحرجته على جذوع الأشجار حتى أوصلته الماء .

زودت القارب بشراع وصارٍ ، وصنعت في طرفيه صندوقين أحفظ فيهما مؤونتي من خطر الموج والمطر ، ثم حفرت مخبأً طويلاً أخفيت فيه بندقيتي وغطيته بلوح خشبي لئلا تصيبه الرطوبة .

وختمت هذه الأشغال بحفرة صغيرة وسط القارب أثبت فيه مظلتي لتحميني من حرارة الشمس .

– المظلة ! يا لهذه المظلة ! كم اقتضت من تفكير وتجارب .

وانصرفت إلى صنعها طول موسم الأمطار الأخير ، وهي فكرة اقتبستها من إقامتي في البرازيل .

أمضيت وقتاً طويلاً ولم أستطع صنع شيء يشبه المظلة ، وكانت الصعوبة الكبرى في إغلاقها ، وتمكنت أخيراً من تخطي هذه العقبة ، وغطيتها بالجلد والوبر حتى ترد عني المطر والشمس ، وحين لا أحتاجها أغلقها وأحملها تحت إبطي ، وعزمت على استخدامها حين أبحر أيضاً .

كان يوم تجربتي لمركبي يوماً تاريخياً في حياتي ، فقد صنعته وصنعت معه أكبر حلم للحرية .

وتخيلت أني أرسو على شواطئ تلك المنطقة فيستقبلني المزارعون بالترحاب ، فأعود إلى الحضارة هانئاً وأنام قرير العين .

ولكن ما إن دفعت مركبي إلى الماء حتى تبين لي خطأ رأيي واستحالة تحقيق أحلامي ، إذ كان البحر يحفر بيني وبينها هوة ضخمة من الأمواج ، يصعب على مركبي الصغير اجتيازها .

يستحيل على جوزة الهند هذه مواجهة المساحات المائية التي تفصلني عن اليابسة البعيدة ، وهي مسافة تقدر بأربعين ميلاً تقريباً ، فماذا يحدث لقاربي إذا هبت عليه العاصفة ؟

كم تمنيت لو حفرت مركباً أكبر منه عشر مرات فأحقق خطتي في الهرب ، وأما الآن فلا فائدة من المجازفة ، إنما هي حالة انتحار مؤكدة .

أقلعت إذن عن فكرة الوصول إلى اليابسة ، وعلا صوت العقل على صوت الندم ، وتبين لي أن مركبي عاجز عن مواجهة البحر حتى لو كانت أمواجه ساكنة والريح رخاء ، ولنفرض أني وصلت إلى الشاطئ المقابل فقد أقع على جزيرة أقل ثراء من جزيرتي ، أو أسقط أسيراً بين أيدي جماعة من المتوحشين ، أو ينالني العذاب الذي أبعده لطف الله عني حتى الآن .

قلت لنفسي بعد تفكير طويل :

– نعم ، عم أبحث في تلك الناحية ؟ إن قواي عاجزة عن الوصول إلى الحرية ، ولو شاء الله أن أعود إلى الحضارة لأرسل الناس إلي ودفعهم إلى جزيرتي دفعاً دون أن أسعى إليهم ، فعادت إلى نفسي السكينة وسلمت أمري إلى الله ، ورضيت بأن أتابع حياتي مثلما كانت عليه ، فأخفيت القارب في مكان أمين ورجعت إلى مسكني .

استقبلتني الحيوانات بابتهاج أكثر من المعتاد ، وكأنما ذكرني هذا الاستقبال بأن لدي أصدقاء مخلصين يخففون عني آلام الوحدة وشقاءها ، فقلت لهذه الرفقة من الحيوانات :

– لقد نسيت إخلاصكم وتغافلت عنه ، وماذا أطلب أكثر منه ؟

إني سيد هذه الجزيرة وحاكمها المطلق ، ولي الحق في إحياء رعيتي أو إعدامها ، آمراً ناهياً لا يتدخل في شؤوني أحد .

فإذا حضر العشاء أحاطت بي حاشيتي ترقب تحركاتي ، بول فوق كرسي وباف عن يميني وفون تنعس فوق الطاولة ، والعنــزة مسندة رأسها على ركبتي ، وهم جميعاً ينتظرون بلهفة قطعة خبز أرميها إليهم .

أيها الناس .. لن أهجر مملكتي ما حييت ! .

الفصل الخامس

خطوة على الرمل

ومرت السنوات ..

كل فصل يحمل معه متاعبه ونتائج لا تكاد تختلف ، ومن حين إلى آخر يجيء موسم سيئ أو يموت أحد أفراد القطيع ، فيضيف إلى عملي عملاً وإلى همي هماً جديداً ، وغاية متعتي أن أتأمل هذه المناظر الجميلة وأنظر إلى ثمرة مجهودي وقد أينعت قمحاً ومؤونة ، وأتسلى برؤية الحيوانات البريئة وهي تتقافز من حولي ، وعلى العمود الذي سجلت مرور الأيام ارتسمت ثلاث وعشرون سنة ، لقد رسوت على هذه الجزيرة شاباً ، وهأنذا قد اجتزت سن الكهولة !

وأصدقكم القول بأني ما تأملت هذا البحر المحيط من المياه الزرقاء إلا تمنيت أن تقع عيني على ظل سفينة قادمة تنقذني من

وحدتي ، فلا أرى إلا الزبد المتطاير من اصطدام الموج أو ظهر دلفين يلاعب أصحابه فوق الماء .

وحدث ذات يوم حوالي منتصف النهار ، وكنت متوجهاً إلى قاربي ، أن رأيت أثر قدم إنسان على الرمال .

فتوقفت جامداً كأنما سقطت صاعقة فوق رأسي أو رأيت شبحاً ، فأصغيت وتلفت حولي فلم أسمع ولم أر شيئاً ، وصعدت فوق أكمة ثم جريت إلى الشاطئ ووقفت أمام البحر ، ولا شيء ، كنت وحدي تماماً ولا إشارة سوى أثر هذا القدم الآدمي ، فانحنيت على الأرض ، لا شك في ذلك : إنها أثر قدم إنسان ، الإبهام ، والعقب ، وكل أجزاء القدم .

تقاذفتني الأفكار المتضاربة ، فهربت إلى مغارتي ، كنت مذعوراً أجري خائفاً ، وخيل إلي أن كل شجرة أو أجمة رجل يُطاردني ، وما إن وصلت إلى " قصري " ، وأعني به المغارة ، حتى وقفت أستمع إلى دقات قلبي كالأرنب المذعور الهارب من مطاردة صائديه .

ولم أنم تلك الليلة ، فقد تزاحمت في رأسي الأفكار الفاسدة ، وتحول أثر هذه الخطوة في مخيلتي إلى جيش من المحاربين .

وطلع النهار فهدأت خواطري وقلت لنفسي لعله أثر قدمي .

ألم أسلك هذا الطريق نفسه أثناء عودتي من زيارة القارب ؟

وقلت لئن كان هذا الأمر أثر قدمي ، فإني أشبه الطفل الذي يغطي نفسه بستارة بيضاء يمثل دور الشبح ، فلا يخيف إلا نفسه قبل أن يخيف سواه .

تشجعت وهبطت مسكني بحذر شديد ، ولو خُيرت لما هبطت منه ، لولا أني تعودت أن أحلب ضرع العنـــزات ، فهذه تسليتي الوحيدة ، وقد اشتاقت هي إلي .

وتأكدت أنه أثر قدمي ، فتوجهت إلى كوخي في الحقول لأحلب القطيع ، ولو رآني إنسان وأنا أحمل الإناء وأمشي بخطوات حذرة ، لقال إني أجبن مخلوق على الأرض ، وكذلك كنت في تلك الآونة .

بعد أن أكملت عملي وأطعمت القطيع ، أكدت لنفسي أن كل ذلك من صنع الخيال ، ولكي يطمئن فؤادي إلى هذه النتيجة رجعت إلى حيث رأيت أثر القدم أول مرة ، وحين وصلت إلى المكان اتضح لي أني لم أعبر من قبل ، لما ذهبت لتفقد قاربي .

وقارنت أثر القدم بقدمي فوجدته أوسع منه عرضاً ، فملأت هاتان الحقيقتان قلبي بالفزع وعمرت خيالي بالصور المرعبة ، وارتعدت أطرافي في طريقي إلى المسكن وأنا أتخيل أن بعض الرجال قد نزلوا الشاطئ وأن الجزيرة مأهولة ، وقد يُحاط بي على غفلة مني في أي لحظة .

ولكن كيف أدافع عن نفسي ؟ لا أدري .

ما أصعب أن يسيطر الرعب على المرء ويشل حركته !

وتوصلت إلى قرار أبعد ما يكون عن العقل السليم ، عزمت على هدم الأسيجة التي أحطت بها حقولي وإطلاق سراح ماشيتي وتخريب حقول القمح والشعير التي فلحتها ، وذلك لئلا يعرف الأعداء أن هذه الجزيرة مأهولة فيبحثوا عن ساكنيها ويعثروا عليّ .

وسيطرت علي هذه الهواجس ، وبقيت يقظاً الليل بطوله ، ولم أنم إلا مطلع الصباح ، فاستيقظت أكثر هدوءاً بعد ساعات من النوم ، وجعلت أداول في ذهني هذا الأمر ، وتوصلت إلى نتيجة هي أن هذه الجزيرة قريبة من اليابسة وليست مهجورة كما خُيل إليّ ، ولئن كانت خالية من السكان فإن بعض السفن قد ترسو فيها إما طوعاً أو قسراً إذ تدفعها الرياح إليها دفعاً ، ولكن لا يسكنها أحد من البشر ، فكم طالت فيها إقامتي ولم أصادف أحداً منهم !

وخير ما أفعله أن احتاط لقدوم بعض الطارئين على جزيرتي من المتوحشين ، فأصنع لنفسي ملجأً آمناً لا ينالني فيه منهم أذى ، فحفرت حول مسكني سبع حفر تحيط به ، وجعلت في كل حفرة إحدى البنادق التي جلبتها من السفينة وزودتها بما تحتاج بحيث أستطيع إطلاق النار خلال دقيقتين إذا هوجمت .

دعمت الدغلة المحيطة بمسكني بأشجار أخرى ، بحيث إن البيت بمحتوياته تحجبه عن الأنظار غابة كثيفة من النباتات ، ازدادت نماء خلال هذه السنوات الماضية ، وصنعت خط دفاع

أمامياً من أغصان الخيزران ، فلا يمكن اجتياز الحواجز إلا بعد أن أتخذ احتياطاتي ، ورسخ في ظني الآن أني وراء قلعة حقيقية تحميها غابة من الأشجار وترسانة من البنادق ولا سبيل لأحد إليّ .

أثناء قيامي بالتحصينات الدفاعية لم أهمل قطيعي من الماعز ، وقد تضاعف عددها بحيث اكتفيت بما أذبح منها وبما أصطاده من سلاحف ، وقد وفر علي هذا تعب الصيد ، واقتصدت في استخدام الذخيرة ، ولم أكن لأفرط فيها أو أدعها تقع بأيدي الأعداء .

بعد تأمل طويل وجدت وسيلتين لحماية عنـــزاتي : الأولى : أن أحفر مغارة عميقة أخفيها فيها ليلاً ، والثانية أن أوزعها على عدد من الحظائر المسيجة ، بحيث إذا أصاب الهلاك مجموعة منها سلمت الباقية واستطعت العناية بها وزيادة عددها بقليل من الجهد .

تجولت من الغد في أنحاء الجزيرة حتى وصلت إلى مكان بعيد ، وهو ساحة من الأرض جرداء تحيط بها الأشجار

والأعشاب ، بحيث تكون حظيرة طبيعية لا تحتاج إلا إلى قليل من العمل ، وإضافة بعض الأسيجة لأحفظ فيها بعض القطيع .

وسرعان ما نفذت هذه الفكرة وصنعت أسيجة ملائمة وحجزت وراءها عشر عنـــزات وتيساً وأطلقتها ترعى وتابعت تجوالي بحثاً عن مناطق أخرى .

ذات يوم ، أوغلت في الجهة الغربية من الجزيرة إلى نقطة بعيدة لم أصل إليها من قبل ، وخيل إليّ أني أرى في عرض البحر مركباً تتقاذفه الأمواج على مسافة بعيدة ، ولم يكن معي لسوء الحظ منظاري المقرب فلم أستطع معرفة ذلك المركب ، ولكن تأكد لي الآن أن هذه الجزيرة عرضة لزيارة القبائل من سكان الجزر القريبة .

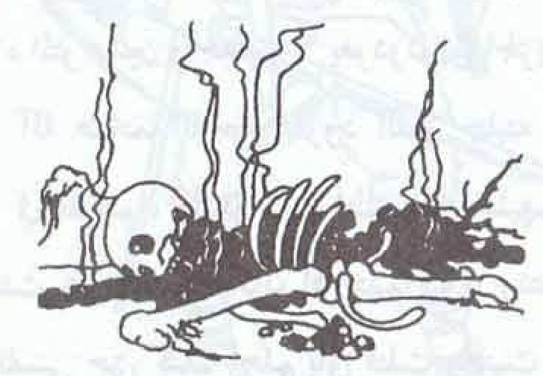
مشيت خطوات على الشاطئ ، فرأيت مشهداً تفصلني عنه كتلة من الصخور ، فتأكد لي إن كنت في شك ، أن أثر قدم بشرية ليس أمراً عجيباً كما خُيل إلي .

ولولا أن العناية الإلهية شاءت لي أن أرتمي على الجانب المهجور من الجزيرة حيث لا يأتي المتوحشون أبداً لكان سهلاً

علي أن أرى القوارب تستريح فيها بعد سفر طويل في أعالي البحار ، وأن المتوحشين يخوضون المعارك فيما بينهم ويأتون بالأسرى إلى هذا الشاطئ ، وقد يقتلونهم ويأكلونهم تبعاً لتقاليدهم الرهيبة .

إن بقايا العظام المتناثرة على الشاطئ أكدت لي هذه الحقيقة .

وإني لعاجز عن وصف الرعب الذي استولى على نفسي لرؤية الشاطئ وقد تناثرت فيه الجماجم والأيدي والأرجل وسواها من العظام البشرية .



ولفت انتباهي دائرة محفورة في الأرض أشعلت فيها النار ، ويستخدمها المتوحشون مائدة لطعامهم المخيف ، ويجلسون حولها أثناء حفلاتهم الرهيبة .

أصابني الذعر والغثيان فجريت مبتعداً إلى مسكني .

وبعد أن تغلبت على خوفي أحسست بالسخط والغضب يتعاظمان في نفسي ، ولم أعد أفكر ليل نهار إلا في وسيلة أقتل بها بعض هؤلاء المتوحشين أثناء حفلاتهم الرهيبة ، أو أستنقذ الضحايا من أيديهم قبل أن يذبحوها .

ولا يكفيني كتاب كامل لوصف الحيل التي تخيلتها لكي أرهب هؤلاء المتوحشين وأجعلهم لا يعودون إلى الجزيرة أبداً .

تخيلت آلة ضخمة تفجر البارود الذي جلبته من السفينة وتثير الذعر في قلوبهم ، وأثناء ذلك أطلق النار عليهم من بنادقي كلها ، وبحثت عن أنسب مكان أفاجئهم فيه ، وتضاعف حس الانتقام في نفسي حتى كنت أحلم بأني قتلت وأفنيت قبائل كاملة منهم .



ولبثت أترقبهم من أعلى قمة هضبة تشرف على البحر وتبعد عن مسكني بحوالي ميلين لعلني أرى قواربهم حين تدنو من الجزيرة أو ترسو فيها .

ولو نظرت إليّ لرأيت مشهداً عجباً ، فقد كنت مسلحاً تسليحاً مخيفاً ، بندقيتي بيدي ، وفي حزامي مسدسان وعدد من الخناجر ، وعلى كتفي لوازم البندقية من بارود وخردق ، وأحمل بيدي الأخرى مظلتي المصنوعة من الجلد والوبر ، وحرصت على الاقتصاد في استخدام البندقية ، بل أقلعت عنه تماماً لكي أوفر الذخيرة للمعركة المقبلة ، ولئلا ألفت إلي أنظار هؤلاء المتوحشين ، وبلغ بي الحال أن توقفت عن قطع شجرة أو دق مسمار لئلا أصدر ضجة يكون لها في الجزيرة صدى ، وكنت أحرص على ألا أشعل النار إلا بحذر شديد وحين الحاجة إليها خوفاً من ارتفاع الدخان .

ولكن توصلت إلى طريقة في إشعال النار لا تلفت الأنظار وهي المستخدمة في إنكلترا ، وذلك بإحراق الحطب تحت ركام من العشب مثلما يفعل الفحامون ، وبعد أن يتحول إلى جمر

أستخدمه في الطبخ ، وأحتفظ بالفحم لأشعله مرة أخرى فلا يصدر عنه من الدخان إلا القليل .

ذات يوم كنت أقطع الحطب في مسكني بجانب الحقول فرأيت مدخل كهف تخفيه الأعشاب ، ودفعني الفضول إلى اكتشافه وزحفت على بطني عدة أمتار ، ثم وقفت مذعوراً إذ رأيت في عمق المغارة عينين تبرقان في الظلام .

أشعلت قطعة خشب وتوغلت في المغارة ، فتناهى إلى سمعي شخير كأنه إنسان نائم أو حسرات محتضر ، وارتعش جسمي خوفاً ، ثم تمالكت نفسي والعرق يتصبب من جبيني ، ورفعت المشعل عالياً فرأيت تيساً ضخماً يصارع الموت : لقد كان تيساً كبير السن عاجزاً عن الحركة ، ودفعته أحثه على الخروج فلم ينهض ، فتركته ينهي أيامه في المخبأ الذي اختاره لنفسه .



تجولت في هذه المغارة أتفحصها فإذا هي ضيقة ممتدة كأنها دهليز طويل له فتحة في نهايته وطوله حوالي اثني عشر قدماً ، وتقدمت بحذر ولا أدري ما ينتظرني ، فوصلت إلى قاعة مرتفعة السقف كالقبة ، ولم أتمالك نفسي من الهتاف دهشة وإعجاباً ، إذ

كانت الصخور تلتمع التماع الذهب ، والجدران تبرق تحت ضوء المشعل كأنها من الحجارة الكريمة .

إنها أروع مغارة يمكن تصورها ، أرضها من الرمل الناعم الجاف ، تغطيها حصباء دقيقة . وفرحت باكتشافي هذا ، لأن صعوبة المدخل تسهل الدفاع عنها ، وعزمت على أن أنقل إليها كل ما أخاف عليه من التلف من مؤونة وذخيرة ، وسارعت إلى تنفيذ ذلك فوراً ، وأقمت لنفسي سريراً في ناحية من القاعة ، وجلبت بعض الأواني ومستلزمات المعيشة اليومية بحيث أستطيع البقاء فيها أياماً دون عناء .

وأما التيس الهرم حارس المغارة فقد مات بعد أيام ، فحفرت له قبراً على مدخل المغارة ودفنته فيه ، وغدوت المالك الوحيد لهذا القصر تحت الأرض .

الفصل السادس
طلقة مدفع

بقيت فوق مرصدي على الهضبة شهوراً أترقب حركة هؤلاء المتوحشين ، فلم يظهر أحد منهم ، ولولا خوفي منهم لتعودت الحياة على الجزيرة ، ولقضيت بقية عمري فيها ، ولوافتني المنية مثلما وافت ذلك التيس الهرم داخل المغارة .

ابتكرت بعض الألعاب المسلية أزجي بها الوقت وألهو عن توالي الأيام ومر السنين .

وقد أصبح " بول " خير صديق لي بعد أن تعلم الكلام ، فكنت أستمتع بالحديث إليه ، وأما فون وباف فقد ماتا بمرض الشيخوخة ، ولم يخلف باف أحداً من نسله لأنه عاش وحيداً ، وأما أحفاد فون فقد أشاعت الحركة والبهجة في القصر الذي أسكنه ، وقد ألفت أن أحتفظ ببعض الماعز المستأنس في القصر ، فكانت تأكل من يدي وتزيد من عدد رعاياي المخلصين .

رأيت اشتعال نار حمراء على الشاطئ في شهر كانون الأول ، السنة الرابعة والعشرين من إقامتي في الجزيرة ، وكنت مشغولاً في الحقل وقد خرجت من مسكني في ساعة مبكرة من النهار ..

لا شك فيما ترى عيناي : بعض المتوحشين قد جلسوا على مسافة ميلين من مكاني ، وليس في الجهة الخصبة من الجزيرة بل في الناحية التي أسكنها .

توقفت مذهولاً خائفاً من أن يكتشف هؤلاء المتوحشون حقولي ويطلعوا على محاصيلها ، فيبذلوا جهدهم للبحث عني .

ارتقيت إلى أعلى الهضبة ووجهت منظاري المقرب نحو جماعتهم ، كانوا تسعة جالسين حول نار صغيرة ، ولا ريب أنهم تناولوا طعامهم المشؤوم وشبعوا ، ونهضوا يعبرون عن فرحهم بالرقص .

بعد ساعتين ركبوا قواربهم الثلاثة وانطلقوا ، ورأيتهم من مرصدي يبتعدون ، فنزلت إلى الحقل وجمعت المحصول ثم دخلت إلى مسكني وقلبي عامر بالقلق والكآبة ، وانصرفت إلى

تفقد تحصيناتي واختبار قوة دفاعها وقدرة البنادق على إطلاق النار .

أثناء ذلك هبت رياح عاصفة وارتفعت الأمواج ، وكان صوت ارتطامها بالصخور يزيد من كآبة نفسي ، وتراكمت القطط في زاوية وقد التفت حول نفسها خائفة ، والعنـــزات تثغو شاكية ، وأما بول الفصيح فقد صمت تماماً وقد دلى رأسه .

وفجأة سمعت طلقة مدفع .

نهضت واقفاً .. المدفع ؟ إنهم قوم من الأوروبيين مثلي يطلبون النجدة !

بعد دقيقتين كنت بجانب الشاطئ ، ولم أر من كثافة الليل شيئاً ، ولكن خُيل إلي أني لمحت من بين الظلمات نوراً على المركب ، ثم التمع ضوء وسمعت طلقة مدفع ثانية .

ماذا بوسعي أن أفعل لنجدة هؤلاء البحارة المنكوبين ؟ ينبغي أن أبين لهم أن الشاطئ مسكون وأني قادر على نجدتهم ، فأطلقت رصاصتين من بندقيتي في اتجاه الضوء الذي التمع بعد طلقة المدفع ، ثم جمعت ما أمكنني من الحطب والأغصان اليابسة وأشعلت فيها ناراً هائلة ، زاد في اشتعالها هبوب الريح ، ولا ريب أن أصحاب المركب قد لمحوها إذ أطلقوا عدداً من الطلقات .

وما زلت أزيد في إضرام النار حتى الصباح ، فصعدت إلى أعلى ربوة أتأمل الأفق ، فرأيت من ناحية الغرب حطام السفينة الغارقة . وعاد البحر هادئاً ساكناً وتناقص هبوب الرياح ..

ونظرت بأسف إلى هذه السفينة التي كان مصيرها على هذه الصخور ، ورمت ببحارتها إلى أمواج البحر العاتية .

هبطت إلى الشاطئ ثانية وتوجهت إلى أقرب منطقة إلى مكان غرق السفينة ، ورفعت المنظار المقرب فرأيت الصاري الكبير مائلاً والسفينة غارقة ، ولمحت شخصاً يتحرك على سطحها ، فأسرعت إلى زورقي لعلني أُنقذ روحاً إنسانية من هذا الحطام ، وفي أقل من ساعة أعددت مؤونة من الطعام والماء ، ولم أنس بوصلتي وبندقيتي ، وحملت مظلتي لأن الشمس محرقة .

دفعت الزورق في التيار ، فتوجه بمحاذاة الصخور ، وكنت قد جربت هذا مرات عديدة من قبل حينما يرتفع المد ويتلوه الجزر ، فأستفيد من حركتهما ، وبعد ساعتين وصلت إلى السفينة .

كانت سفينة إسبانية في حالة مزرية ، تحطمت مقدمتها وجوانبها ، وانقصف صاريها على مستوى القاعدة .. وما بقي منها كان عالقاً بين الصخور ، ولم يبق بيني وبينها سوى عشرات الأمتار ، فارتفع صوت نباح مرتفع ، ثم ظهر كلب أسود فرمى بنفسه إلى الماء سابحاً نحوي بكل قوته .. فجذبته من طوقه ورفعته إلى الزورق ، كان المسكين منهكاً جوعاً وتعباً ، فأعطيته ما يأكله ، فالتهمه كأنه ذئب لم يذق طعاماً منذ أسابيع ، وسقيته بعض الماء ، فاستراح الكلب " توركو " وقد قرأت اسمه على طوقه ، ثم جعل يبصبص بذيله ويلعق يديّ شاكراً .

أدركت أن هذا الكلب هو الكائن الحي الوحيد على ظهر السفينة ، ولم تعد غايتي من تفقد الحطام سوى الحصول على شيء ينفعني في معاشي ، وصعدت إليها فرأيت في الحال رجلين

قد ربطا نفسهما إلى الصاري الصغير ، لعل الموج لا يرميهما إلى البحر ، ولكنهما ماتا غرقاً ، فقد خنقهما الموج بضرباته .

فحولت وجهي أسفاً ، وبدأت أفتش الجانب السليم من هذه السفينة .

كانت حمولتها من البضائع فاسدة كلها ، ووجدت بعض الصناديق الخاصة بالبحارة ، فحملت منها اثنين إلى زورقي لأفتحهما فيما بعد .

ولكن أين بقية البحارة ؟ وتخيلت عدداً من الإمكانات ولكن لم يتحقق أيٌّ منها ، فسارعت إلى ركوب زورقي قبل أن ينسحب المد ولا أستطيع العودة إلى الجزيرة .

كنت قد وجدت بالإضافة إلى الصناديق مجرفة وكماشة وعدداً من البنادق وأربعة أرطال من البارود وسخانين من النحاس ، وجلس "توركو" بجانبي وتوجهت إلى الجزيرة ، فوصلتها منهكاً بعد ثلاث ساعات من التجديف ، ولم أنقل حمولتي إلى القصر بل إلى المغارة الجديدة ، فجلست فيها أستريح

وتناولت بعض الطعام ورميت إلى الكلب بما يأكله فالتهمه التهاماً .

فتحت الصندوقين لأرى ما فيهما ، كان في الصندوق الأول علبة جميلة مزينة برسوم فضية ، وفيها زجاجتا عطر فاخر ومطربانان من المربّى محكما الإغلاق ، فلم ينلهما الماء ، وعدد من القمصان الممتازة التي أدخلت البهجة إلى نفسي ، وبعض المناديل من القطن الأبيض وربطات عنق ملونة .

وحين وصلت إلى قعر الصندوق وجدت ثلاثة أكياس من القطع الذهبية والفضية ، وستة دنانير إسبانية من نوع الدبلون وعدداً من السبائك الذهبية الصغيرة تزن حوالي الرطل .

وأما الصندوق الثاني فلم يكن فيه سوى الملابس المستعملة وبعض الأشياء التافهة ، ولعله صندوق بحار فقير .

لم تكن النقود ذات قيمة بالنسبة إليّ ، فهي ليست أثمن من رمال الشاطئ ، وتمنيت لو أستبدل بالنقود زوجين من الأحذية الإنكليزية المتينة التي تفيدني في هذه الجزيرة .

بعد أن جعلت هذا في مكان أمين ، رجعت يتبعني كوركو إلى مسكني فوجدت كل شيء على ما يرام .

أما ضيفي الجديد (توركو) فقد ألف الحياة معي وتعرف على سكان القصر وتعايش معهم وأخذ مكان باف ، فكان يتبعني حيثما توجهت مخلصاً وفياً .

عادت حياتي سيرتها الأولى مقسمة ما بين الأعمال الصغيرة وبين الطعام والنـــزهات ، ولكني بقيت محتاطاً حذراً أسكن الجانب الشرقي من الجزيرة حيث لا يأتي المتوحشون إلا قليلاً .

الفصل السابع

جمعة

بعد انقضاء ثلاث سنوات ونصف فوجئت من الصباح الباكر برؤية خمسة زوارق على الشاطئ قريباً من قصري ، لقد نزل المتوحشون ولم أرهم لأن الصخور حجبتهم عني .

وكنت جزعاً قلقاً من هؤلاء المتوحشين ، ولا ريب أن عددهم حوالي الثلاثين ، لأن كل زورق يضم خمسة أشخاص أو ستة .

أصغيت بسمعي وتوقعت أن يهاجمني آكلو لحوم البشر هؤلاء ، فلم أسمع شيئاً ، فضقت ذرعاً فصعدت الأكمة بحذر وجلست في موقعي الذي طالما رصدت منه السفن التي لم تأت أبداً فوجدت الرجال مجتمعين حول النار يعدون الطعام ، فأي نوع من الطعام يعدون وكيف يفعلون ؟ ولكن سرعان ما نهضوا يرقصون ويحركون أيديهم ، فعلمت أنها إحدى حفلاتهم المألوفة ،

ثم جذبوا من القوارب شخصين جاؤوا بهما إلى جانب النار ، وسقط أحدهما بضربة فأس ، وسارع ثلاثة أو أربعة من المتوحشين إلى تمزيق جسده على حين وقف الثاني جامداً ينتظر مصيره باستسلام ، ولكنه استسلام ظاهر ، لأنه انطلق يجري فجأة ، ولم يكن مقيداً ، وكانت خطواته تسوقه نحو مسكني ، فأصبت بالذعر لأنه إذا لحقت به الجماعة كلها فسوف يكتشفون مكاني وتقع الكارثة ، وهدأت نفسي إذ لم يلحق به سوى ثلاثة منهم ، واستطاع الهارب أن يجتازهم بمسافة طويلة لأنه أسرع منهم ، ولم يبق أمامه سوى أن يقطع البحيرة سباحة لينجو منهم وهذا ما فعله ، فرمى بنفسه إلى الماء وتردد الثلاثة قليلاً ثم تبعه اثنان ، وبقي الثالث على ضفتها لعله لا يجيد السباحة ، وتمكن الهارب من الوصول إلى الضفة الثانية بثلاثين ضربة من ذراعيه ، ورجع هذا الشخص الثالث إلى أصحابه وقد يئس من ملاحقته ، أما الآخران فاستغرقا وقتاً طويلاً لقطع البحيرة ، وقلت لنفسي : لقد حان الوقت لكي أحصل على خادم أو رفيق أو صديق . وأنا مدعو الآن إلى إنقاذ هذا المخلوق البائس .

قفزت من الهضبة عدة قفزات فوجدتني قريباً من الشاطئ ، واجتزت الغابة لكي ألاقي الهارب وملاحقَيه ، وسمع الهارب وقع خطواتي فالتفت ، ولا ريب أن خوفه مني لم يكن يقل عن خوفه منهما ، ولكني أشرت إليه ألا يخف وأن يعود إلي ، وتوجهت بخطوات هادئة إلى هذين الرجلين ، وهجمت على الأول وبضربة من عقب بندقيتي طرحته أرضاً مغمى عليه ، وتوقف صاحبه متردداً ، وحين اندفعت إليه رأيته يفوّق سهماً ليرميني به ، فوجدتني مضطراً إلى إطلاق النار أولاً فطرحته قتيلاً .

توقف الهارب وتأمل هذا المشهد ، وسمّره الرعب في مكانه لرؤية نار بندقيتي وسماعه صوت الرصاص ، وكان مستعداً للفرار .

فناديته مرة ثانية ، ودعوته إلى الاقتراب ، فتقدم نحوي عدة خطوات ثم توقف ، وكان يرتجف وكأنه يتوقع أن يلقى مصير هذين المتوحشين من أعدائه ، فكررت إشارتي إليه أطمئنه وأهز رأسي مبتسماً ، فمشى مرتعداً وهو ينظر إلى وجهي تارة وإلى

بندقيتي طوراً ثم يسجد كل خطوتين إما طالباً الرحمة أو شاكراً
لأني أعرضت عن قتله .



وكنت أبتسم إليه وأدعوه إلى الاقتراب ، وأخيراً دنا مني
وقبّل الأرض ، ووضع جبهته على الرمل ، وأمسك قدمي برفق
ووضعها على رأسه .



ففهمت من تمالكه أنه يريد أن يكون لي عبداً ، فأنهضته
ووضعت يدي على جبهته ملاطفاً ، ثم جعلتها على كتفه وهدأت
من خوفه ما استطعت .

ولكن المعركة لم تنته ، إذ لاحظت أن المتوحش الذي رميته
أرضاً لم يمت وإنما أغمي عليه ، وبدأ يعود إلى وعيه ، فلفت نظر

أسيري إلى أن عدوه حي لم يمت ، فأجابني بكلمات لم أفهم معناها ، ولكنها كانت هادئة ، وكانت أولى الكلمات البشرية التي أسمعها منذ خمس وعشرين سنة .

ولم تكن اللحظة ملائمة للتأملات الفلسفية ، إذ أن المتوحش سرعان ما استعاد قواه ووقف على قدميه ، ولاحظت أن الذي أنقذته قد أصابه الذعر . فصوبت بندقيتي نحوه لكي أرديه قتيلاً ، ولكن صاحبي طلب مني بالإشارات أن أعيره سيفي المعلق بحزامي ، فناولته السيف ، فجرى نحو عدوه وبضربة واحدة قطع رأسه .

ثم جرى نحوي ضاحكاً وهو يهز يديه بانتصار ، وبحركات معقدة لم أفهم معناها ، وضع تحت قدمي السيف ورأس المتوحش معاً .

وأما الشيء الذي حيّره فهو كيف استطعت من مسافة بعيدة أن أقتل ذلك الهندي ، وأشار إليه بإصبعه طالباً الإذن بأن يقترب منه ويتفحصه ، فأذنت له بهزة من رأسي .

وقف بجانبه وقلب جثته وتفحصها طويلاً ، وجس أطرافه ليتأكد من موته ويلمس جرحه ، كانت الطلقة قد أصابت صدره ، فسال منه دم قليل ، وبعد أن أدخل إصبعه في الجرح ، وهز رأسه مرات عديدة هزات إعجاب ودهشة ، انتزع من المتوحش القتيل قوسه وسهامه ورجع إلي ، وكنت متعجلاً مغادرة هذا المكان على الرغم من المسافة البعيدة التي تفصلني عن بقية المتوحشين ، وخشيت أن يكونوا قد سمعوا صوت الرصاص فيسارعوا إلى ملاحقة الهارب جميعاً .

ووجدت من الأسلم الابتعاد عنهم ، وأمرت رفيقي أن يتبعني ، وأفهمته أن الأعداء قد يقبلون علينا بين لحظة وأخرى .

أشار إليّ أنه يريد أن يدفن القتيلين لئلا يعرف أصحابهما مصيرهما ، وبدت لي هذه الحيلة دليلاً على الحذر ، وأكدت لي أن رفيقي لا يفتقر إلى الذكاء ، فسمحت له بأن يفعل ، فحفر في الرمل حفرة واسعة ورمى فيها الأول ، ثم سحب الثاني إليها وغطاهما ورمى بعض الأغصان اليابسة لئلا يترك لهما أثراً .

وكانت حركاته من السرعة والمهارة بحيث لم يستغرق أكثر من ربع ساعة لكي يدفنهما معاً . أثناء ذلك كنت أحرس المكان وأزيل آثار الدماء التي خلفتها المعركة على الرمال ، ومضيت مع رفيقي المتوحش إلى المغارة ، ولم أطلعه على مسكني خوفاً من هذه العصابة القريبة من قصري ، وحذراً من رفيقي الجديد الذي لا أعرف عنه شيئاً .

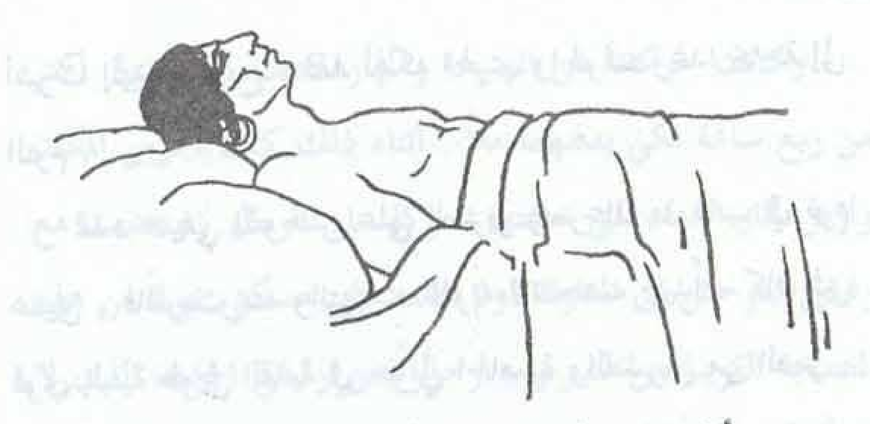
قطعنا المسافة بين الشاطئ والمغارة عبر الغابة ونحن نضائل شخوصنا ، ونرقب بحذر الشجيرات المحيطة بنا ، ووصلنا إلى مدخل المغارة التي أخفيت مدخلها ببعض الأغصان إخفاء تاماً .

وانحدرت إلى مدخل المغارة ، وتبعني رفيقي المتوحش بعد تردد ، ووقف مذهولاً لرؤية هذه المغارة العجيبة حقاً ، وكانت جدرانها تلتمع تحت أضواء الشمعدان الذي أوقدته ، وكم استمتعت بالدهشة التي ارتسمت على وجهه وهو يتلمس بيديه الشموع الموقدة ثم يمرر يده على الجدران اللامعة لمعان الذهب .

أرقدته على الفراش الذي كنت أعددته لنفسي ، وقدمت له بعض الطعام والعنب والماء ، فشرب وأكل بلذة ظاهرة ، ثم

أشرت إليه ليستريح ، فقد أنهكه الجري والخوف وغدا بحاجة إلى النوم .

تمدد ضيفي المتوحش على السرير وسرعان ما غاب في نوم عميق ، فاقتربت منه وانتهزت غفوته لأتفحصه جيداً ، كان فتى قوي البنية طويل القامة في حوالي الخامسة والعشرين من العمر ، وجهه واضح القسمات ولكن لا تبدو عليه القسوة أو الوحشية ، وله ابتسامة وديعة ، وشعره غزير مسترسل ، ليس جعداً مثل شعر الزنوج ، وأما جبهته فهي عريضة تشع بالذكاء ، وعيناه وقادتان تلمعان ، ولون بشرته أسمر وليس فيه ذلك اللون الأحمر كما لدى الهنود الأميركيين ، وكان وجهه مدوراً وأنفه صغيراً أشم وليس أفطس ، وشفتاه رقيقتين وأسنانه دقيقة بيضاء ناصعة ، ولعله من هنود أميركا الوسطى ، أذكى أبناء العرق الأحمر .



بعد أن نام نصف ساعة خرج من المغارة ثم رجع إلي ، ومضيت إلى قطيع الماعز في الحظيرة المجاورة لأجلب بعض الحليب ، وحين أبصرني ارتمى على الأرض ، وجعل يقوم بحركات كثيرة تدل على الاستكانة والعرفان بالجميل لأني أنقذت حياته من أيدي المتوحشين ، ثم وضع رأسه على الأرض وجذب قدمي وجعلها فوقه كما فعل أول مرة ، وكان يقول شيئاً ، ولعله يريد الإفصاح عن رغبته في البقاء معي وإطاعة أوامري .

فربتّ بيدي على رأسه ، وحاولت أن أفهمه أني راض عنه وأني راغب في بقائه معي .

ثم جلسنا تحت شجرة ، وبدأت أعلمه أول دروس الإنكليزية ، بدأت بأن قلت له إن اسمه " جمعة " ، وكنا يوم

الجمعة ، فوجدت من المناسب أن أدعوه باسم ذلك اليوم الذي أنقذته فيه من الموت ، وعلمته أن يدعوني " سيدي " ، وأن يقول " نعم " و" لا " ، وأفهمته دلالة هاتين الكلمتين .

أدرك بسرعة معاني هذه الكلمات الأربع ، وطلب مني أن ألفظ كلمة تدل على " البحر " وهو يشير إليه ، ثم " الأشجار " و" السماء " ، ولم أكن بحاجة إلى أن أُعيد على سمعه هذه الكلمات أكثر من أربع مرات أو خمس ، وإذا ما لمح الرضا في وجهي عن حفظه وذكائه ، صفق يداً بيد كما يفعل الطفل الفرح .

قدمت إليه قصعة من الحليب وشربتها قبله ، وغمست فيها قطعة خبز لكي يقلدني ، فلم يتأخر ، وجعل يشير إلي بأنها لذيذة .

لبثنا في المغارة ليلاً ، وكنت يقظاً ، وأحسبني سمعت أقداماً تروح وتجيء ، وأغصاناً تتكسر ، وكانت قريبة منا في بعض الأحيان حتى إني أمسكت ببندقيتي ونهضت مستعداً لدفع الخطر ، وأيقظت " جمعة " ولما دنوت من مدخل المغارة ، لمحت شبحاً

يتحرك تحت لمعان النجوم ، فتنكبت بندقيتي ولكن توقفت في الحال . إنه " توركو " الذي كان يبحث عني ، فدخل المغارة فرحاً ، وعرفت أنه قطع الحبل الذي ربطته به إلى الشجرة ، ودفعه الجوع إلى البحث عني ، وقادته غريزته إلى المغارة ، وحين رأى جمعة كشر عن أنيابه ، ولكني طلبت من جمعة أن يقدم إليه قطعة خبز ويبدأ معه صداقة لا تنفصم عراها ، فكانا صديقين حميمين لا يفترق أحدهما عن الآخر .

عزمت مطلع الفجر على ارتقاء الهضبة المطلة على قصري لأعرف ما فعل المتوحشون ، وكنت أخشى أن ينطلقوا باحثين عن رفاقهم وطريدهم ، وكان لا بد أن أكسو جمعة الذي لا يرتدي سوى قطعة واحدة من الثياب ، وأفهمته هذا فظهرت عليه الفرحة .

مررنا بالمكان الذي دفنا فيه المتوحشين ، فأشار إلي بأنه ينبغي أن ننبش عنهما ونأكلهما . فعرفت أنه من آكلي لحوم البشر ، فأظهرت له التقزز والغضب ، وأعلمته أني لا أحبذ هذا العمل ، وطلبت منه أن يمشي أمامي ، فأطاع في الحال ، وبدأت أفكر بأن

أول واجباتي تجاهه أن أمحو من غريزته هذه النـزعة إلى أكل لحوم البشر ، ولكن واجباً أشد إلحاحاً كان يشغلني عن ذلك وهوسلامتنا ، فصعدت الهضبة ورفعت المنظار المقرب لأرى الموقع الذي كان فيه المتوحشون بالأمس .

لقد اختفى الرجال بزوارقهم ولم يظهر لهم أثر في الأفق ، مما يدل على أنهم قد أبحروا ليلاً حين واءمهم مد البحر ، وخلفوا وراءهم رفاقهم ولم يبحثوا عنهم زمناً طويلاً .

ولكن أردت التيقن من هذا ، فهبطت حتى المكان الذي خلفوا فيه رماد نارهم ، فلم أجد أحداً منهم ، فناديت جمعة وسلحته بالسيف والقوس والسهام ، وحملت معي بندقيتين جاهزتين للرمي ومضينا إلى أقصى الجزيرة ، وكان " توركو " يتبعنا هادئاً مما يوحي بألا خطر علينا ، وحين وصلنا إلى مكان الاحتفال الذي أقامه المتوحشون كاد الدم يتجمد في عروقي ، إذ رأيت منظراً مهولاً ، فالدماء متناثرة والأشلاء الآدمية في كل ناحية ، وأما جمعة فلم يهتز لهذا المشهد وكأنما ألف رؤيته .

وعلمت من إشارات جمعة أن المتوحشين قد جاؤوا بأربعة أسرى ليأكلوهم ، وقد فعلوا ، وكان هو الرابع الناجي منهم ، وأن حرباً ضروساً قد نشبت بينهم وبين قومه ، ومصير الأسرى متشابه دوماً .

فأمرت جمعة أن يجمع هذه الأشلاء الآدمية ويضرم فيها النار حتى تغدو رماداً ، وخيل لي أنه لا ينفذ أمري إلا آسفاً ، لأنه يتشهى هذا اللحم بحسه البدائي ، وكنت أعبس في وجهه وأنا أتذكر حكاية سمعتها في إحدى رحلاتي ، وهي أن أحد المبشرين قال يعظ أحد آكلي لحوم البشر :

– إن لحم الإنسان ليس جيداً يا بني !

فأجابه المتوحش :

– لا تقل إنه ليس جيداً بل قل إن أكله خطيئة .

وكنت حازماً مع جمعة أشد الحزم ، لا أغفل عنه وهو يقوم بإحراق الأشلاء ، وأعلمته أنه إذا مس اللحم الآدمي أو زينت له نفسه ذلك فسيكون مصيره الموت .

بعد أن أنهينا هذه المهمة رجعت إلى القصر لكي أقوم بتنظيف جمعة وإلباسه ثياباً مناسبة .

أعطيته بنطالاً وجدته في صندوق أحد البحارة ، وقصرت ساقيه حتى يصل إلى ركبتيه ، ثم صنعت له قبعة من جلد الماعز لاءمته تماماً ، وكان يضيق بثيابه هذه ولا يعرف كيف يمشي بها ، ثم ألفها وأبدى إليّ عرفانه وشكره ، وتساءلت بعدئذ عن مكان أسكنه فيه .



لم أجرؤ على إسكانه في قصري ، ولكن لا بد له من مكان آمن يشغله ، ولا أخشى عليه فيه من الخطر .

عمدت إلى تنظيف مكان لا يبعد كثيراً عن قصري ، وصنعت له كوخاً صغيراً ، ووضعت فيه سريراً مريحاً ، فكان لخادمي مسكنه الخاص به ، تحيط به دغلة كثيفة تحجبه عن أنظار العدو إن وجد لنا عدو ، ويصعد إليه بسلم يرفعه ليلاً .

وأمنت بذلك خطره أيضاً ، لأنه لا يستطيع القدوم إلي إلا أحسست بوقع أقدامه على الأعشاب والأغصان اليابسة التي أحطت بها قصري .

ولكني بالغت في الحذر ، فقد كان جمعة خادماً أميناً مطيعاً مخلصاً لا يخشى جانبه ، وأجرؤ على القول إنه على استعداد للتضحية بحياته من أجلي ، وكان تعلقه بي تعلق الابن بأبيه .

ولن يمضي زمن طويل قبل أن أبني له كوخاً أوسع من كوخه السابق لصيقاً بقصري ، بعد أن أكون قد أوليته ثقتي الكاملة .

الفصل الثامن

تربية جمعة

بعد ثلاثة أيام أو أربعة من عودتي إلى القصر ، فكرت بأنه لكي يقلع جمعة عن ميله إلى أكل اللحم البشري لا بد أن يتذوق لحماً سواه ، فاصطحبته ذات يوم إلى الغابة وأنا عازم على ذبح جدي من القطيع لطبخه في مسكني .

في الطريق رأيت عنـــزة راقدة في الظل ومعها جديان بجانبها ، فطلبت من جمعة التوقف ، وصوبت بندقيتي نحو أحد الجديين وأرديته قتيلاً ، وعلى الرغم من أن جمعة قد رآني أقتل أحد أعدائه على مسافة بعيدة ، فقد ذعر ذعراً شديداً وارتجفت أعضاؤه ، وتوقعت أن يسقط صريعاً .

ولم ينظر إلى الجدي ولم يدر إن كنت أطلقت النار عليه ، بل نزع سترته عن جسمه ليتأكد من أنه لم يصب هو بأذى ، ولا

ريب أنه ظنني سأقتله لأنه جثا أمامي وقبّل ركبتيَّ وتكلم بكلام كثير لعله يرجوني به ألا أقتله .

فأخذت بيده وأنا أبتسم ، وأشرت إلى الجدي الصريع ، وطلبت منه أن يأتي به فأطاع ، فكان يقلبه متسائلاً عن سبب موته ، وأعدت تلقيم بندقيتي ، فلمحت على شجرة قريبة طائراً شبيهاً بالصقر ، ولكي أُعلّم جمعة العلاقة بين البندقية ومقتل الجدي ، ناديته وأشرت إلى الطائر ثم إلى بندقيتي ثم إلى الأرض تحت الشجرة لأقول له إني سأقتل الطائر . أطلقت النار فسقط

الطائر ، وعلى الرغم مما أشرت إليه فقد ظل جمعة خائفاً يرتعد من الدهشة .

أدركت أن جمعة يعتقد وجود قوة سحرية في البندقية ذاتها لأنه لم يرني أُلقمها ، ولم أشأ أن أُبين له حقيقة الأمر لأني لست على ثقة تامة بطبيعة مزاجه ، ولا آمنه على نفسي ، ورأيته مرات عديدة يخاطب البندقية كأنها قادرة على الكلام ، وعلمت فيما بعد أنه يتوسل إليها ألا تقتله .

حان الآن وقت تذوق اللحم المشوي الذي ينسي جمعة شهوته إلى اللحم البشري ، واستخدمت مواهبي في الطبخ ، وأطعمت جمعة يومين متتالين من لحم الجدي مطبوخاً ومشوياً .

وأفهمني جمعة أنه استمتع بهذا اللحم ، وأنه لن يذوق مستقبل الأيام سواه ، وأنه أقلع عن أكل لحم البشر ، ولا تسل عن فرحي واطمئناني لقوله هذا .

في الأيام اللاحقة شغلت جمعة بفرك القمح وهرسه ، فأتقن عمله ، خاصة بعد أن تذوق خبز القمح وتلذذ به ، فأفهمته أنه

من واجبنا الآن أن نتوسع في الزراعة لأننا اثنان ، ولا بد لنا من مخزون أوفر ، فأقبل على فلاحة الأرض مسروراً .

بمرور الأيام تحسنت لغته الإنكليزية ، وكان متعطشاً إلى المعرفة ، فأحرز فيها تقدماً ظاهراً ، ولم ينقض شهران حتى كنا نتبادل الأحاديث التي وجدت فيها غاية متعتي ، وكم حرمت من متعة الكلام مع أمثالي من البشر !

والعجيب أن الببغاء بول أحس بالغيرة فلم ينطق بحرف ، ولم ألتفت إلى إرضائه لأني كنت مشغولاً بتعليم جمعة .

وإن ما أعجبني في هذا الهندي المتوحش صفاء نفسه وسذاجة تفكيره وإخلاصه في عواطفه ، حتى لقد وجدت فيه صديقاً وفياً أحبه ، وأظنه مستعداً للتضحية بنفسه من أجلي .

ذات يوم أردت أن أعرف ما إذا كانت به رغبة إلى العودة إلى قومه ، وسألته إن كانت قبيلته قد انتصرت في المعارك ، فابتسم وقال مزهواً :

– نعم فنحن خير المقاتلين .

– ولكن كيف وقعت في الأسر ؟

فأجابني بلغة تخالف قواعد النمو ، ولكني أترجمها لكي يفهمها القارئ ، فقال :

– لقد تخلفت عن قبيلتي بعد أن غادرت مواطن الصيد ووقعت أسيراً بين أيدي هؤلاء القوم .

– ولِمَ لَمْ تستنقذك القبيلة من بين أيديهم ؟

فهز رأسه بحزن وقال :

– لم يكن عندنا حينئذ قوارب .

وسألته ثانية :

– إذا وقع الأسرى بين أيديكم فماذا تفعلون بهم ؟ هل تأكلونهم ؟

فقال :

– نعم ، قبيلتي من آكلي لحوم البشر .

– وهل جئت إلى هذه الجزيرة سابقاً ؟

– نعم ، جئت مع أصحابي .

وارتعدت لفكرة أن جمعة كان من بين الرجال الذين جاؤوا إلى هذه الجزيرة لالتهام الأسرى ، وجعلت أنظر إليه بارتياب ، ولكنه سرعان ما هدأ من قلقي ، وأبدى نحوي طاعة كاملة .

من الغد تابعت مساءلته عن أحوال المنطقة وموقعها ، فعلمت أن جزيرتنا تقع في مصب نهر (الأرنوك) ، وهذا ما يفسر تلك التيارات المائية المتعاقبة ، وأدركت أن الأرض التي أقف عليها تقع في الغرب والشمال الغربي ، وهي جزيرة (الترينتي) .

وتهاطلت أسئلتي على جمعة حول المنطقة وسكانها ، والشعوب المجاورة لها ، وأدركت أني في مواجهة جزر الكاريبي .

ورفع جمعة إصبعه مشيراً إلى شاربي ، وقال :

– هناك عند مغيب القمر كثير من الرجال البيض ذوي اللحى قتلونا جميعاً .

وعلمت أنه يعني بذلك الإسبان الذين سفكوا دماء القبائل ، وذاعت شهرتهم في أمريكا كلها ، وتناقل أخبار مجازرهم الأبناء عن الآباء .

بعد أن توثقت عرى التعارف بيننا ، حكيت لجمعة ما جرى معي ، ودربته على استخدام البندقية وإطلاق النار ، وأهديته سيفاً قصيراً ففرح به فرحاً شديداً .

في إحدى محادثاتنا وصفت له السفينة التي كنت على ظهرها ، وكيف حاولنا أن نبلغ بها الجزيرة ، فقال لي جمعة :

– لقد رأيت سفينة مماثلة لها تأتي إلى موطن قبيلتي ، وأنقذنا بعض الرجال البيض من الغرق .

– وهل يوجد رجال بيض في السفينة ؟

– نعم ، كثير من الرجال البيض .

وسألته عن عددهم ، فحسب على أصابعه سبعة عشر رجلاً ، وقلت :

– ماذا حدث لهم ؟

– إنهم أحياء لدى قبيلتي منذ أربع سنوات .

– وكيف حدث يا جمعة أنكم لم تقتلوهم وتأكلوهم ؟

فقال بلهجة مزهوة :

– هم بؤساء ! والمحاربون لا يأكلون إلا الأعداء .

وعرفت من قصته أن هؤلاء الرجال هم البحارة الذين كانوا على السفينة الغارقة منذ أربع سنوات أمام جزيرتي ، وقد نجوا من الغرق ليصبحوا أسرى لدى قبيلة من المتوحشين .

ومنذ تلك اللحظة اشتدت بي الرغبة في الاتصال بهؤلاء (الرجال ذوي اللحى) ، وأحسبهم من الإسبان أو البرتغاليين .

وبما أننا على القارة وعددنا كبير ، فسوف نجد وسيلة للهرب من هؤلاء المتوحشين .

بعد أيام من هذه المحادثة مضيت مع جمعة إلى الشاطئ الغربي من الجزيرة ، وأشرت إلى الخط المترجح في الأفق بين الأرض والسماء ، فتأمله مدة طويلة ثم بدأ يقفز ويصيح :

– يا فرحتي .. يا فرحتي .. ! بلادي .. أهلي ، سأرى أهلي !

فوضعت يدي على كتفه وقلت له :

– ألا تريد العودة إلى بلادك ، لترى أهلك ؟



فهتف قائلاً :

– نعم سأكون فرحاً بالعودة إليهم .

– وماذا ستفعل هناك يا جمعة ؟ هل تريد العودة إلى حالتك الوحشية وتأكل لحوم البشر ؟

فظهرت عليه الكآبة وقال :

– لا ، سيحكي لهم جمعة أن عليهم اتباع الحياة الصالحة ، فيأكلوا القمح ولحم القطيع والحليب لا لحم البشر .

– سيقتلونك إذن .

– لا ، لن يقتلوني ، إنهم يحبون المعرفة ، وقد تعلموا كثيراً من الرجال الملتحين الذين كانوا في السفينة .

فقلت له والحزن قد تملكني لشدة رغبته في الذهاب :

– امض إذن .

فابتسم :

– لا أعرف السباحة .

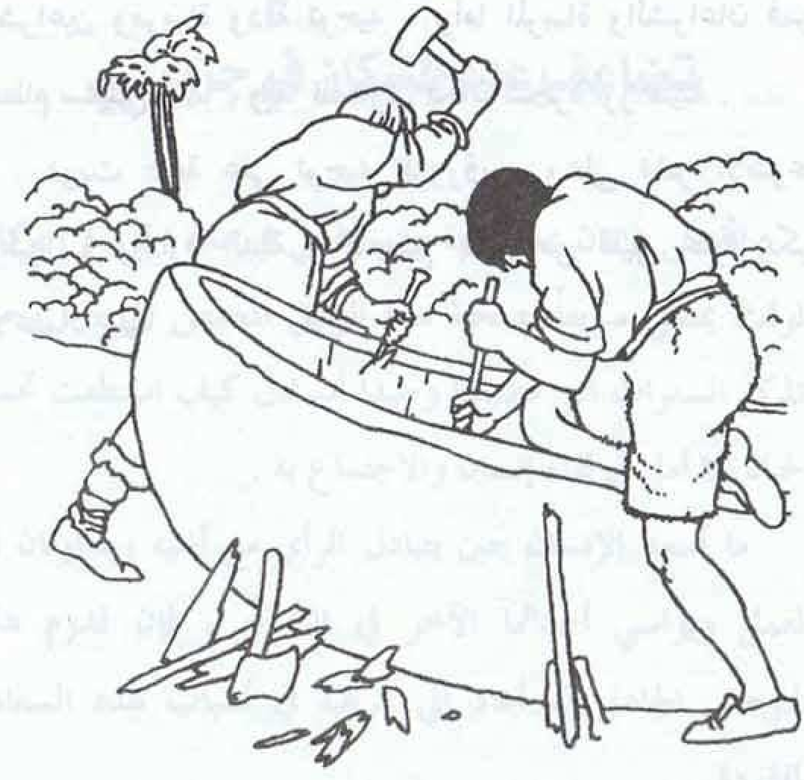
– سأصنع لك قارباً تسافر به .

فارتمى على قدمي وجعل يقبلها ، وقال :

– سأبقى حيث يبقى سيدي ، وأمضي حيث يمضي سيدي .

فتأثرت لإخلاصه هذا وأنهضته قائلاً :

– نعم ، سنسافر معاً ، سنصنع زورقاً كبيراً نسافر به .



ومنذ ذلك الحين كنا نوزع وقتنا بين الزراعة ورعاية القطيع ، وصنع زورق قادر على مواجهة الأربعين ميلاً التي تفصلنا عن شاطئ القارة .

ودلني جمعة على الخشب الذي ينبغي استخدامه ، وتعلم بسرعة فائقة استخدام أدواتي .

وأمضينا ستة أشهر حتى صنعنا زورقاً ، وجهزته بصارٍ وشراعين ومرساة ودفة توجيه ، وأما المرساة والشراعان فمن حطام سفينتي ذاتها ، وأما الصاري فكان شجرة أرز متينة .

دربت جمعة على توجيه الزورق ، وعلى نشر الأشرعة وطيها ، وإدارة الدفة ، فأصبح بعد زمن قليل بحاراً يمكن الاعتماد عليه .

الفصل التاسع

تضاعف عدد السكان في جزيرتي

انقضى عامان على جمعة وهو رفيقي في هذه الجزيرة ، وكان الوقت يمضي سريعاً بصحبة هذا الرفيق المخلص المرح ، وحين أتذكر السنوات التي قضيتها وحيداً أتساءل كيف استطعت تحمل الحياة بلا أمل في لقاء إنسان والاجتماع به .

ما أسعد الإنسان حين يتبادل الرأي مع أخيه ويتعاونان في العمل ويواسي أحدهما الآخر في الضرّاء ، فإن قدوم هذا المتوحش الجاهل قد أعاد إليّ الرغبة في أسباب هذه السعادة المفقودة .

كانت حياتنا نشطة مرحة ، ومما حثنا على العمل إحساسنا بالقدرة على الوصول إلى القارة ، فكنا نترقب الفصل الملائم للرحيل ، وقد خبأنا زورقنا في خليج من جنوب الجزيرة ،

وانصرفنا إلى تخزين المؤونة اللازمة للرحلة ، وقد كلفت جمعة بالبحث عن بيوض السلاحف التي كنا بها مولعين .

ذات صباح أرسلته إلى جهة الشمال الشرقية لعله يجد بعض السلاحف ، فعاد إليّ مسرعاً وكأن قدميه لا تمسان الأرض . وكان فزعاً وهو يصيح :

– سيدي .. حزن .. سوء !

وسألته مندهشاً :

– ما هناك يا جمعة ؟

– هناك .. ثلاثة زوارق ، أربعة .. جاؤوا ليأكلوني !

فقلت له أهدئ من روعه :

– لا تخف يا جمعة ، لن يأكلوك وحدك ، بل سيأكلوني معك ، ولكن لا رغبة بي لأن أكون عشاء لذيذاً لهم ، لذلك سنحاربهم .

– ولكن عددهم كبير !

– لا يهم ، إن بنادقنا تخيف من لا تقتله ، إذا فعلت ما أطلبه منك ووقفت بجانبي هزمناهم .

فقال جمعة ببساطة :

– أموت حين تأمرني بالموت يا سيدي !

سلحت جمعة ببندقيتي صيد ولقمتهما بالرصاص ، وجعل في حزامه سيفاً وبلطة ، وكنت أحمل دوماً سيفي ومسدسين في حزامي ، فأضفت إلى سلاحي هذا أربع بنادق ذوات الطلقتين ، وتوجهنا مسرعين إلى مرصدنا فوق الهضبة .

رفعت المنظار المقرب على عيني فرأيت واحداً وعشرين متوحشاً وثلاثة أسرى وثلاثة قوارب راسية في مكان آخر غير المكان الذي قبض فيه على جمعة ، فالتفت إليه وقلت له :

– لقد عزمت على قتلهم جميعاً .. هل تساعدني ؟

فهز رأسه موافقاً ، فهبطنا من الهضبة ، وطلبت من جمعة ألا يخالف لي أمراً ، ومشينا لكي نصل إلى الغابة القريبة من المتوحشين فنفاجئهم قبل أن ينتبهوا إلينا .

دخلنا الغابة حذرين لا ندوس فوق غصن شجرة لئلا تُسمع خطواتنا ، وما إن وصلنا إلى حافة الأشجار حتى توقفت وأمرت

جمعة أن يصعد الأجمة التي تفصلنا عن المتوحشين لأعرف ما يفعلون .

عاد جمعة بعد دقيقة ليخبرني أنهم ليسوا من قبيلته بل من أولئك الذين أسروه ، وأنهم يأكلون جالسين حول النار ، وأن أسيراً آخر مرمياً على الرمل قد شدوا وثاقه ، وهو من الرجال الملتحين الذين جاؤوا إلى بلاده على ظهر السفينة .

حين سمعت كلمة " الرجال الملتحين " تملكني الخوف ، فتقدمت إلى الدغلة ونظرت في المنظار المقرّب ، فرأيت على الرمل رجلاً موثق اليدين والقدمين تدل ثيابه على أنه أوروبي .

رأيت وراء المتوحشين صخرة كبيرة تحجبنا عنهم ، فإذا قمت بنصف دورة وصلت إليها ، فيكونون على مرمى من بنادقنا ، فأشرت إلى جمعة أن يتبعني واختبأنا وراءها .

لم تكن أمامنا لحظة نضيعها ، لأن اثنين من المتوحشين ابتعدا عن جماعتهم لكي يذبحا الأسير ، فوضعت على الأرض بندقيتين من بنادقي الأربع وأعطيت واحدة لجمعة وتنكبت أخرى وصوبتها نحو المتوحشين ، وسألت جمعة :

– جاهز ؟

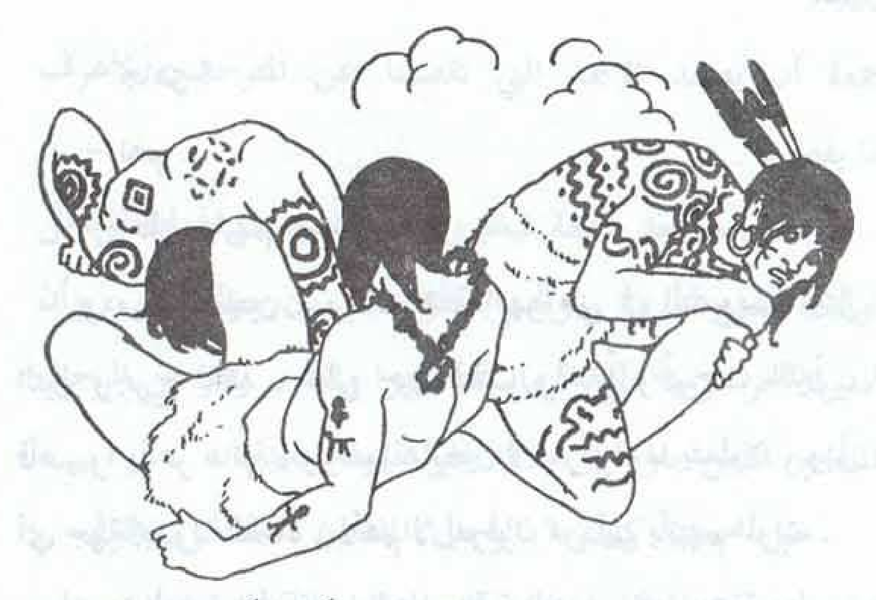
– نعم .

– أطلق عليهم جميعاً .

ورميت طلقتين ، وكان جمعة أمهر مني في التصويب فقتل اثنين وجرح ثلاثة ، على حين قتلت واحداً وجرحت اثنين ، فأصيبوا بذعر هائل ، ووقفوا هائجين لا يعرفون ما يفعلون ، وإلى أي جهة يجدون النجاة ، لأنهم لا يعرفون من أين يأتيهم الموت .

بعد الدفعة الأولى تناولت بندقية الصيد وفعل جمعة مثلي . وصرخت : " نار ! " فأطلقنا في لحظة واحدة على هؤلاء الأشقياء المذعورين ، فمات منهم اثنان وأُصيب الآخرون بالرصاص المتناثر حتى كانوا يجرون هنا وهناك والدماء تسيل من أجسادهم ، ثم سقط ثلاثة منهم متأثرين بجراحهم ، فتركت على الأرض البندقية الفارغة وحملت المعمَّرة وقلت له :

– اتبعني يا جمعة !



واندفعت إليهم وأنا أصرخ صراخاً مخيفاً ، فرأيت الأسير البائس يتحرك على الأرض فسارعت إليه ، وأما اللذان حاولا ذبحه فقد هربا لأول طلقة نار وركبا الزورق ومعهما ثلاثة من أصحابهما ، فالتفت إلى جمعة وأمرته أن يتقدم إلى الزورق ويطلق عليهم النار ، ففهم مرادي فأطلق النار فسقطوا في الزورق جميعاً ، وبعد برهة نهض اثنان منهم .

حينما كان جمعة يطلق النار بغزارة سارعت إلى الأسير فقطعت وثاق يديه وقدميه وأنهضته وسألته بالبرتغالية فأجاب :

" إسباني " وكان من الضعف والإرهاق والذعر بحيث لا يكاد يقوى على الكلام ، فسقيته الماء ودفعت له قطعة خبز التهمها ، وقلت له بما أتذكره من اللغة الإسبانية :

– إن علينا مواصلة القتال ، فإن كانت فيك بقية قوة فخذ هذا المسدس والسيف وثأر لنفسك .

وما إن أمسك بيده السلاح حتى سرت في جسمه قوة جديدة فاندفع إلى معذبيه فمزق اثنين منهم بلمحة عين .

أمسكت بندقيتي بيدي دون أن أطلق النار لأنها سلاحي الوحيد وليس فيها سوى طلقة واحدة ، وناديت جمعة أطلب منه أن يأتي بالبنادق الفارغة التي تركناها في الغابة ، فجاء بها مسرعاً فلقمتها .

على حين كان الإسباني يصارع أحد المتوحشين ، طاردت مع جمعة اثنين منهم هربا إلى الغابة وقضينا عليهما ، ولا ريب أن الذعر والجراح التي أصابتهما قد ساعدتنا على ذلك ، ولم يهرب من الواحد والعشرين متوحشاً سوى ثلاثة نجوا على ظهر الزورق .

وكنت قلقاً هربهم لئلا ينبهوا قبيلتهم إلى وجودي في الجزيرة ، فعزمت على مطاردهم في البحر وأسرعت إلى أحد القوارب وقفزت إليه وأنا أنادي جمعة .

فكم كانت دهشتي عظيمة وأنا أرى في قاع القارب أحد المتوحشين موثقاً من كتفيه حتى قدميه منذ مدة طويلة حتى لا يكاد يتنفس ، فقطعت أربطته وناديت جمعة لكي يسقي هذا البائس جرعة ماء ، وأطلق جمعة حين رآه صرخة اهتز لها المكان ، وارتمى على هذا المتوحش وضمه إلى صدره ، ثم نهض وهو يبكي ويضحك ويرقص ويغني كالمجنون .

وأخذ أخيراً يديَّ بين يديه وجعل يقبلهما وقال :

– سيدي .. إنه أبي !

ويعجز لساني عن وصف ما تركه في نفسي فرح جمعة بلقاء أبيه الذي نجا من الموت ! وبدأ جمعة يهتم بأبيه فضم رأسه إلى صدره وأمسك بذراعيه وقدميه التي آذاها الوثاق ، وجعل يفركها ليعيد إليها سريان الدماء .



وقد منعني هذا الحدث من ملاحقة المتوحشين الهاربين في القارب ، وكان هذا لحسن حظنا ، لأنه لم تنقض ساعتان حتى هاج البحر وارتفعت أمواجه وعصفت الرياح ، واعتقدت أنهم لن يستطيعوا النجاة بقاربهم وسط هذه الرياح العاتية والأمواج العالية .

بعد أن هدأت فرحة جمعة بأبيه ناديته وقلت له :

– أسرع إلى القلعة وهات ماء عذباً وطعاماً لأن أباك والإسباني في أشد الحاجة إلى الطعام والشراب .

ولم أر في حياتي جمعة ينطلق بمثل هذه السرعة .

كان الإسباني قد ارتمى تحت ظل شجرة وقد انتفخت يداه وتورمت قدماه من الأربطة التي حزّت في جلده ، وحين رجع جمعة ساعدني على معالجته والتخفيف من آلامه ، وكان يتلفت كل دقيقة يرمي ببصره إلى أبيه شوقاً إليه وجزعاً عليه ، فارتفعت مكانة جمعة في نظري لما أبداه نحو أبيه من الحب والعطف والحنان .

ما إن استعاد الإسباني والمتوحش قواهما حتى طلبت من جمعة أن يضعهما في القارب ويسير بهما إلى مسكننا .

ومشى القارب بمحاذاة الشاطئ حتى وصلنا سالمين ، ولكنهما كانا من الضعف والخوف بحيث لا يمكنهما الوقوف ، فصنعنا نقالة وحملناهما الواحد تلو الآخر وأرقدناهما فوق سرير مريح من الأعشاب الرطبة .

طلبت من جمعة أن يذبح عنـــزة لطعامنا ، وقطعت الفخذين ووضعتهما على النار وجعلت بقية اللحم في قدر تغلي لأصنع

لهما حساءً يقويهما ويعيد إليهما بعض الحياة ، وساعدني جمعة في مهمتي وقد أصبح طباخاً ماهراً .

وجلسنا بعد وقت قصير إلى المائدة ، ونظرت إلى ما حولي وتأملت جمعة وأباه والإسباني ، فأدركت أن هذه لحظة هامة من لحظات العمر ، فكم مر علي من السنين ولا ضيف لي سوى الحيوانات ؟

وفكرت : " إن جزيرتي مأهولة الآن وأنا غني برعاياي ، إنني السيد المطلق والحاكم المشرّع ، وهم مدينون لي بحياتهم جميعاً ، ولا أعرف ملكاً قدم إلى شعبه ما قدمت لهم ! " .

بعد العشاء ، أمرت جمعة أن يهبط إلى الشاطئ فيدفن الضحايا والأشلاء ، فلا تطاوعني نفسي على الدنو منهم ، وأخشى أن تشرق شمس الغد فتفسدهم وتنشر الأمراض في الجزيرة .

وقد نفذ جمعة ما طلبت منه بحذافيره ، وبعد مدة رجعت إلى ذلك المكان فأدهشني ألا أرى أثراً لما حدث في ذلك اليوم الرهيب .



الفصل العاشر

خطة الخلاص

من الغد والأيام التالية عليه كان لي حديث مطول مع ضيوفي ، وكلفت جمعة بأن يسأل والده عن أولئك المتوحشين الذين نجوا بأنفسهم ، وهل يظنهم يعودون ومعهم قوة تفوقنا عدداً حتى نستعد لهم .

وكان رأي الشيخ أن الزورق لا يكون قد قاوم العاصفة ، فإما أن يغرق أو تدفعه الأمواج إلى أقصى الجنوب ، وفي هذه الحالة الأخيرة لن ينجو ركاب الزورق من القبائل في تلك المناطق ، وإذا قدرت لهم النجاة فلن يجرؤوا على المجازفة بأرواحهم والعودة إلينا بعد ما لاقوه من الذعر والقتل .

وكان اعتقاده ثابتاً لأنه سمعهم وهو موثق في القارب يقولون إن شيطانين قد هبطا عليهم من السماء لإهلاكهم . وعلى هذا فلن يجرؤوا على مواجهة تلك الأرواح وإثارة غضبها مرة ثانية .

وبدت لي حجج " ريما " والد جمعة معقولة ، فالواضح أن الناجين من المذبحة يتحدثون عنا وكأننا من الجن الذين " ينفثون النار وينطقون بالرعد " ولن يعودوا إلى جزيرة مسحورة تسكنها الأرواح .

ولكني لم أتخل عن حذري ، فكنت أصعد الهضبة كل يوم أرصد البحر ، وبمرور الأيام عادت إليّ فكرة الخروج من هذه الجزيرة والذهاب إلى القارة ، وأكد لي جمعة أني أستطيع الاعتماد على مساعدة قبيلته لما أسديته من معروف له ولأبيه ، وكنت على وشك القيام بهذه المحاولة ومغادرة الجزيرة ، وقد روى لي الإسباني قصة حياته وحياة رفاقه لدى الأقوام الذين سأضع فيهم ثقتي .

إن السفينة التي كانت تُقلّهم قد تحطمت على الشاطئ الصخري لجزيرتي ، وحكى لي الإسباني بدرو غسمانيس ، وهذا اسمه ، عن تلك الليلة الرهيبة وكيف جدفوا بقاربهم نحو النار التي أشعلتها لهم ، ولكن الأمواج دفعت بهم إلى الغرب ورمتهم على جزيرة كبيرة يسكنها آكلو البشر .

وروى لي بدرو أنهم عاشوا حياة آمنة ، وإن كانوا يخشون الصراع الدائم بين سكان تلك المناطق ، ولم يكونوا ينالون ما يكفيهم من الطعام ويخافون أن تتبدل نظرة أولئك المتوحشين إليهم بين عشية وضحاها ، فقضوا عشر سنوات من حياتهم في جزع دائم .

وسألت بدرو إن كان وأصحابه قد حاولوا الفرار ، فقالوا إنهم تداولوا هذه الفكرة بينهم ، ولكنهم لا يملكون مركباً ولا أدوات لصنعه وليس لديهم سلاح ولا مؤونة ، فكانت تنتهي مداولاتهم بالدموع واليأس المميت .

وأعترف بأن أحاديثي مع بدرو الإسباني قد طردت من رأسي فكرة اللجوء إلى قبيلة جمعة وأبيه ريما ، وكنت أطلب منه على الدوام تفاصيل عن حياته لديهم ، وقلت له ذات يوم إني قادر على إنقاذ رفاقه ، ولكني أخشى غدرهم وخيانتهم إذا وضعت مصيري بين أيديهم .

وشرحت له رأيي بصراحة قائلاً :

– إن الاعتراف بالجميل ليست طبيعة ثابتة في الجنس البشري ، وإن قلبي يدعوني إلى البحث عنهم وجلبهم إلى جزيرتي ، ثم أسعى إلى بناء سفينة كبيرة تنقلنا جميعاً إما إلى البرازيل من جهة الجنوب أو إلى الجزر الخاضعة للسلطة الإسبانية نحو الشمال ، وكم ستكون خيبة أملي كبيرة إذا وقعت أسيراً بين أيديهم بعد ما بذلت في سبيلهم من جهد ، وإني لأفضل أن يفترسني المتوحشون حياً على أن أقع – وأنا البروتستانتي – بين أيدي رجال التفتيش من الكاثوليك الإسبان ، وماعدا هذه المعضلة ، فإني على يقين من أننا قادرون على العيش معاً في هذه الجزيرة لنبحث عن خلاصنا جميعاً .

فأجابني بدرو الإسباني :

– أقسم لك أن جميع البحارة رجال أهل مروءة وشهامة ولا يمكنهم أن يضمروا الشر لمن ينقذهم من هذا المصير المشؤوم ، وإنهم بعد مصرع القبطان يطيعون أوامري ويفعلون ما أشير عليهم به ، وأعاهدك منذ الآن على الوفاء والطاعة والإخلاص لأني مدين لك بحياتي ، ولن أفترق عنك ما دمت على قيد

الحياة ، وإذا نكث أصحابي بعهودهم ، فإني مستعد لإراقة دمي دفاعاً عنك .

فصافحت يد الإسباني الممتدة إلي وأحسست أنه مخلص في قوله ، وعزمت على المبادرة إلى تخليص البحارة من القبائل المتوحشة والمجيء بهم إلى جزيرتي .

واتفقت معه على أن خير وسيلة إلى ذلك أن يمضي هو والشيخ ربما إلى أصحابه ويعلمهم بما اتفقنا عليه ، وأن يأخذ عليهم المواثيق بأن يدينوا لي بالطاعة ما داموا على جزيرتي .

وما كدت أبدأ الإعداد لما اتفقنا عليه حتى جاءني الإسباني باعتراض وجيه ، وهو أن ما لدينا من المؤونة والغلال لا يكاد يكفي أربعة الأشخاص الذين يعيشون على الجزيرة الآن ، وأن الأراضي المزروعة والمواشي المحجوزة في الحظائر قد تكفينا غائلة الجوع ، ولكن إذا قدم إلينا أصحابه ، وعددهم ستة عشر رجلاً ، فسرعان ما تنفد هذه المؤن ، ولا نجد شيئاً نقتات به .

واقترح عليّ بدرو أن نفلح أراضي جديدة ونزرع ما لدينا من الحبوب والغلال وننتظر ستة أشهر أخرى حتى نحصدها ، ونكون

بذلك قادرين على إعالة هذه الأسرة الكبيرة المتكونة من عشرين شخصاً ، ورأيه أن الجوع ونقص الطعام قد يثير الفتن بين الرجال ، فكأننا نجّيناهم من بؤس ليقعوا في بؤس أشد منه وأقسى .

وكان رأيه صائباً فوافقت عليه فوراً ، وعمدنا أربعتنا إلى فلاحة الأرض بقدر ما تتيح لنا الأدوات المتوافرة لدينا ، واستطعنا خلال شهر من العمل أن نفلح أرضاً قابلة لزرع اثنين وعشرين مكيالاً من الشعير وستة عشر من القمح ، أي كل ما يمكننا الاستغناء عنه من الحبوب دون أن نحرم أنفسنا من الخبز .

لقد أصبح عددنا الآن كافياً للدفاع عن الجزيرة من غزو المتوحشين ، وكنا نتجول في أنحاء الجزيرة غير هيابين ولا وجلين ، ولم ينقطع ذهننا عن التفكير في وسيلة للخلاص من هذا السجن البعيد عن أمثالنا من بني الإنسان .

واستعداداً لهذه اللحظة اخترت عدداً من الأشجار الصالحة لصنع الزورق المطلوب وطلبت من جمعة وأبيه أن يقطعاها ،

وجعلت أمر الإشراف والتوجيه إلى الإسباني بدرو الذي أطلعته على كل خططي .

ولم يكن أمراً سهلاً أن تحول شجرة ضخمة وبوسائل بدائية إلى ألواح سمكها أربع أصابع وطولها خمس وثلاثون قدماً وعرضها قدمان ، إنها التجربة التي علمتني كيف أغدو نجاراً ماهراً .

في الوقت ذاته زدت من عدد الماشية ، وانطلقت مع جمعة وتوركو إلى القبض على الماعز البري المنتشر في الجزيرة ، حتى ظننت أن لدينا ما يكفي لإنتاج الحليب والزبدة واللحم . وحان فصل تجفيف العنب وبقية الفواكه ، فساعدني رفاقي في هذه المهمة التي كنت أقوم بها وحدي ، وكان محصول هذه السنة من العنب وفيراً حتى ملأنا منه ستين إلى ثمانين برميلاً .

بعدئذٍ حان موسم الحصاد ، ولم يكن أفضل موسم قمح عرفته أثناء إقامتي ، ولكنه يفي بالغرض ، فقد زرعت اثنين وعشرين مكيال شعير ، كما ذكرت ، وحصدنا حوالي مئتين وعشرين مكيالاً ، وكان محصول القمح بالنسبة ذاتها ، وهو

يكفي حتى مجيء المحصول القادم إطعامنا وإطعام الستة عشر إسبانياً وتخزين الباقي في السفينة التي سوف نستقلها .



قمت بالحسابات الدقيقة لكي أتمكن من الذهاب إلى أوروبا ومعي هؤلاء البؤساء الذين لم يروا وطنهم منذ زمان بعيد .

بقي علينا أن نصنع السلال لكي نخزن فيها محصول الشعير والقمح ، فكان الإسباني خير عون لنا في صنعها ، فكانت سلالاً

واسعة وخفيفة بآن واحد ، صنعها من أعواد الخيزران وسواه من النباتات المنتشرة في الجزيرة .

حين رأيت أن لدينا مخزوناً وافراً من الحبوب والطعام ، طلبت من بدرو أن يمضي مع ريما إلى جلب أصحابه ، ولكني أكدت عليه مرة ثانية ألا يأتي برجل منهم ما لم يقسم بألا يثير الشغب أو يتمرد أو يخالف أمري ، وأن يكون لي عوناً على أعدائي ، ويكون هذا في عقد مكتوب موقع بإمضائه .

بعد أن زودت بدرو الإسباني وريما والد جمعة بهذه التعليمات ، ركبا أحد الزوارق الذي حملهم إلى جزيرتي أسرى ، وأعطيتهم طعاماً يكفيهم ثلاثة أيام ، ويكفي أصحابهم أسبوعاً تقريباً ، بالإضافة إلى عدد من جرار الماء ، وسلحت كلاًّ منهم ببندقية ومخزون من البارود والخردق ، وأوصيتهما ألا يستعملاها إلا في حالة الضرورة القصوى .

واتفقت مع بدرو الإسباني على أن يطلق إشارة تعلمني بوصولهم بمسافة بعيدة قبل وصولهم الجزيرة عائدين ، وودعتهما بحزن شديد وكنت آسف لفراق هذا الإسباني الذي ظهرت لي شهامته وشجاعته وإخلاصه في عدة مواقف ، وكانت الكآبة تخيم على جمعة وهو يودع أباه .

ابتعد الرجلان بقاربهما ، وصعدت أنا وجمعة إلى الهضبة كي نراهما أطول مدة ممكنة ، ثم نزلنا يتبعنا توركو إلى القصر لنقوم بأعمالنا اليومية .

الفصل الحادي عشر
ما لم يكن في الحسبان

انتظرت أصحابنا منذ ثمانية أيام ونحن الآن في منتصف شهر تشرين الثاني ، وقد طرأ حدث هام كان له تأثير كبير في حياتيّ .

كنت غارقاً في النوم صباحاً حين دخل جمعة إلى غرفتي وهو يصيح :

" سيدي .. سيدي .. لقد جاؤوا .. لقد جاؤوا " ..

وسارعت إلى ارتداء ثيابي ، ولم آخذ سلاحي لأني لم أتوقع الخطر ، وتبعت جمعة إلى ذروة الهضبة مرصدنا المعتاد .

رأيت على مسافة ميل من الشاطئ قارباً يتجه نحو الجزيرة ، ولكن ليس القارب الذي ننتظره ، كان قارباً كبيراً يحمل شراعاً مربعاً قادماً من الجنوب لا من اليابسة .

التفت إلى جمعة وقلت له :

– لا ترفع رأسك ولا تشر إليهم ، ليسوا من ننتظرهم ، ولا ندري إن كانوا عدواً أو صديقاً ، أسرع واجلب لي منظاري المقرب ، سنرى ما نفعله .



رجع جمعة ومعه المنظار ، وتبين لي أنه قارب كبير ذو مرساة يبعد ميلين عن الشاطئ من جهة الجنوب الشرقي ، وعرفت دون أدنى شك أنه قارب إنكليزي .

وكيف أعبر عن الفرحة التي جاشت في صدري ؟

كنت فرحاً بهذا القارب الذي يستقله مواطنون من بلدي ، أي أصدقاء لي .

وجزعت لسبب لم أعرف له تفسيراً .

وقلت لنفسي :

"ماذا جاء يفعل هنا قارب إنكليزي وليست هذه المنطقة مجال التجارة الإنكليزية ، ولم تسقه إلينا العاصفة لأن الطقس جميل ، ولا يبدو أنه مصاب بل هو في حالة جيدة ، ولئن كان ركابه من الإنكليز فإن خططهم غير واضحة ، وعلي التأكد من غايتهم " .



– وإذن يا سيدي ؟ ليسوا هم ؟ ليس شيئاً حسناً .

– لا أدري .. ولنكن حذرين ، اخفض رأسك لئلا يروك ، ولنراقبهم !

وصل القارب إلى الشاطئ ونزل منه أحد عشر رجلاً ، ثلاثة منهم بغير سلاح وقد ربطت أيديهم ، وكان واضحاً أنهم أسرى ، فالتفت أحدهم يتوسل ويطلب الرحمة .

قال جمعة وقد ثار غضبه :

– هل الرجال الإنكليز يأكلون الأسرى مثل المتوحشين ؟

– ماذا يا جمعة ؟ هل تظنهم سيأكلونهم ؟

– نعم ، الشريرون سيأكلون الثلاثة الآخرين .

فقلت له : لا ، لن يأكلوهم ، ولكنهم سيقتلونهم كما أظن ، والفرق ليس كبيراً بين الحالتين .

ولم أكد أكمل كلامي حتى رفع أحدهم سكيناً كبيراً وطعن به أحد الأسرى ، فتجمد الدم في عروقي .

وندمت حينئذ على بدرو الإسباني والشيخ ربما الذي مضى معه ، فلو كنا أربعة لاستطعنا أن نهجم على هؤلاء ونخلص الأسرى من أيديهم ، أما الآن فعددنا قليل ، وليس لسلاحنا تأثير سحري عليهم كما كان تأثيره على المتوحشين .

تسللت وجمعة إلى القصر ، وأقمت المتاريس والتحصينات وجهزت البنادق ، ثم رفعت السلم المؤدي إلى المسكن ووقفت فوق صخرة أراقب حركة البحارة الذين تفرقوا في الجزيرة وتركوا أسراهم يتجولون كما يشاؤون ، وكان يحرس القارب رجلان ما لبثا أن تمددا على الشاطئ قرب صخرة .

تمشى الأسرى قليلاً ثم جلسوا تحت ظل شجرة ، نظراتهم تائهة ، وقد فقدوا كل أمل في الحياة .

وتذكرت أول لحظة وطئت فيها الجزيرة ، فكم كنت تائهاً يغمرني الحزن ، يائساً لا أمل لي في الحياة !

لم أكن أظن تلك الليلة أن العناية الإلهية ستراف بي وترميني إلى الشاطئ ثم تهيئ لي سبيل النجاة ، كذلك هؤلاء الأسرى لا يدرون الآن أن فرج الله قريب وأن نجاتهم وشيكة .

أثناء ذلك انحسر ماء البحر وأصبح القارب على اليابسة ، ولم يلحظ الحارسان ما حدث له إذ كانا نائمين ، واستيقظا فجأة يناديان أصحابهما لكي يدفعوه إلى الماء .

حاولوا أن يخلصوا القارب من الرمل فلم ينجحوا ، فقال أحدهم بلا مبالاة :

– اتركوه حتى المد الثاني وسوف يطفو .

ولاحظوا أن الأسرى لا يستطيعون ركوب القارب والهرب به ، فدخلوا الغابة يستريحون فيها إذ أنها الثانية بعد الظهر والحر شديد .

عزمت بادئ الأمر على انتظار هبوط الظلام لأتدخل وأحرر الأسرى ، ولكني أعلم أن المد لا يعود قبل العاشرة مساء ، وشجعني ابتعاد البحارة على استعجال الأمر .

كان الأسرى الثلاثة جالسين تحت شجرة كبيرة تبعد ربع ميل عن قصري ، ولم يذوقوا النوم جزعاً على مصيرهم المحتوم .

فأشرت إلى جمعة أن يتبعني وتسللت من الدغلة الكثيفة المحيطة بقصري حتى وصلت إلى الأسرى .

كنت مسلحاً بسيفي ومسدسيّ وبندقيتي وعلى رأسي تلك القبعة من جلد الماعز ، وكذلك كان جمعة شبيهاً بي ، فأثار منظرنا الرعب لدى الأسرى ولم أدهش لذلك ، فظلوا جالسين يحدقون وقد عقد الرعب ألسنتهم ، وكادوا يهمون بالهرب حين خاطبتهم بالإنكليزية قائلاً :

– أيها السادة ، لا تخافوا ، إنكم لا تعرفونني ، ولكن قد أكون صديقاً لكم !

فقال أحدهم بصوت مرتعد :

– وهل أنت إنسيّ ؟

فابتسمت قائلاً :

– إني من الإنس طبعاً وإنكليزي أيضاً ! جئت لإنقاذكم وليس معي سوى خادمي هذا . ولكن لدينا السلاح والذخيرة ، فهل تحسنون استخدامها ؟

فأجاب الآخر :

– إني يا سيدي ، قبطان هذه السفينة الراسية على مسافة ميلين من الشاطئ ، وقد تمرد البحارة عليّ واستولوا عليها ليقوموا بالقرصنة ، وبعد طول توسل ورجاء قبلوا أن يرمونا على جزيرة مهجورة ، وأظنك تدرك سبب دهشتنا .

وسألته :

– أين أعداؤكم ؟

– هناك في الغابة .

– هل معهم أسلحة نارية ؟

– بندقيتان فقط ، وتركوا الثالثة في القارب .

فقلت بعد أن تأملت البحارة :

– حسناً ، إنهم نائمون ويسهل علينا قتلهم ، ولكني أفضل أخذهم أسرى .

قال القبطان :

– إن اثنين منهم ينبغي معاملتهما بحذر ، فهما من الأشرار ، والآخرون يتبعون أمرهما ، وتسهل السيطرة عليهم .

فقلت للقبطان :

– إني مستعد لإنقاذكم ولكن بشرطين : الأول أن تأتمروا بأمري ما دمتم في هذه الجزيرة ، ولا سلطة فيها لأحد غيري ، والثاني أن تنقلوني وخادمي إلى إنكلترا مجاناً ، وكذلك جماعة من الناس يعيشون على مسافة أربعين ميلاً من هذا المكان .

قال القبطان وقد أمسك بيدي الاثنتين :

– إني أقسم لك على ذلك ، واعتبرني صديقاً لك ، وأقبل شرطَيك سواء حصلنا على السفينة أم لم نحصل عليها .

وقال الآخران :

– نقسم لك على الطاعة والإخلاص .



فقلت لهم :

– إليكم هذه البنادق الثلاث مع الخردق والبارود ، ولنبدأ بهذين اللذين يتزعمان المتمردين .

وما كدت أنهي قولي حتى سمعنا أصوات البحارة وقد استيقظوا ، ووقف أحدهم وتلفت حوله فرآنا ، ولكن قبل أن ينبه أصحابه سارعنا إلى الراقدين ، فقتل مساعد القبطان أحد المحرضين بطلقة بندقية ، وصرع القبطان ثانيهما . أثناء ذلك صوبت أنا وجمعة بندقيتنا نحو البحارة الثلاثة الذين استيقظوا فزعين وهم ينظرون إلينا .

قال القبطان :

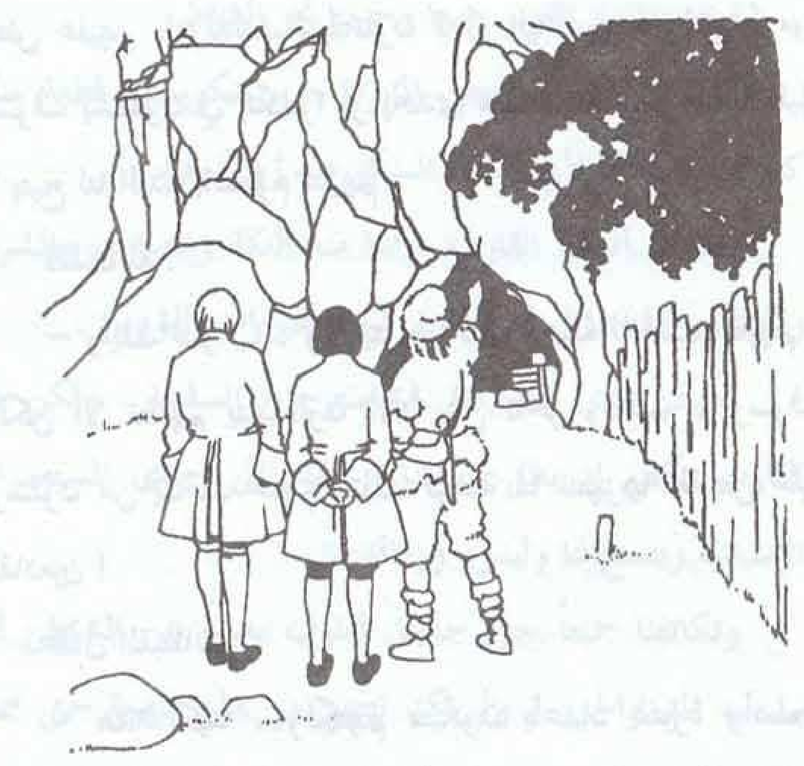
– جوان ، جورج ، سامي لا تخافوا ، لن أعاقبكم جزاء فعلكم إذا أقسمتم على مساعدتنا في استرداد السفينة وندمتم على مخالفتكم لأوامر رؤسائكم !

وقدم البحارة إلى القبطان ولاء الطاعة وعاهدوه على الإخلاص ، وربطنا أيديهم وأرجلهم ، وفيما نفعل ذلك أقبل البحارة الثلاثة الذين دخلوا الغابة يتجولون فيها وقد حذّرتهم طلقات الرصاص التي سمعوها ، وحين رأوا القبطان استسلموا له ، فربطناهم إلى جانب رفاقهم وكان نصرنا تاماً .

بعد أن دفنا البحارين القتيلين ، أجلست القبطان ومساعده بجانبي وحكيت لهما ما جرى معي منذ مغادرتي إنكلترا ، وأصغى القبطان إليّ بانتباه وإعجاب ، ثم شد على يدي وقال :

– إني معجب بك يا سيدي لما أبديت من شجاعة وحرص على الحياة ، ولا ريب أن العناية الإلهية قد لطفت بك حين رمتك قريباً من حطام السفينة ، وإن الله يعين من يسعى ولا يقصر في عمله . وشكرت القبطان على كلامه اللطيف ودعوته مع مساعده إلى الاستراحة في القصر وكذلك دعوت اثنين من بحارته ، وحبست أربعة من البحارة الأسرى إلى المغارة حيث لا يسمع أحد أصواتهم ، إذا بدا لهم طلب النجدة ، وأخذنا معنا البحارين اللذين انقادا إلى التمرد بدافع الخوف .

صعدنا نحن الستة إلى مسكني فأعجبوا بصلابته وحسن تنظيمه وقوة تحصينه ، ودهش الكلب توركو والببغاء بول لرؤية هؤلاء الضيوف ، ولكن جمعة استطاع أن يفهمها بطريقته الخاصة أن لا خطر عليهما منهم .



بعد أن طعمنا وشربنا وهدأت خواطرنا ، سألت القبطان :

– علينا الآن استعادة السفينة ، فماذا أنت فاعل يا سيدي القبطان ؟

فقال القبطان :

– لا أخفي عنك أني قلق لأنه ما يزال على ظهر السفينة ستة وعشرون رجلاً ضالعون في التمرد ، وحياتهم في خطر إذا

قبض عليهم ، ولذلك سيقاتلون قتال اليائسين ، ولئن هُزموا فسوف يشنقون في إنكلترا أو إحدى مستعمراتها ، وعددنا قليل لا يتيح لنا البدء بالهجوم عليهم .

فقلت له :

– رأيك صواب ، ولا بد من تدبير حيلة للتغلب عليهم ، ولكن ألا تظنهم يتساءلون الآن عن تأخر رفاقهم ، وسوف يرسلون من يبحث عنهم وتلك فرصة لنا ننتهزها للقبض على القادمين !

فقال القبطان :

– هذا أكيد ، ولكنهم سيأتون بأعداد غفيرة وأسلحة كثيرة .

وقال مساعده :

– أليس من الأجدر أن نمنعهم من استرجاع القارب الذي جاءت به أول دفعة منهم ؟

فقلت :

– أفضل أن نكسره لئلا يصلح للركوب .

وخرجنا من القصر جميعاً وجرينا نحو الشاطئ .

كان في القارب بعض المؤونة من بسكويت وقطعة سكّر كبيرة فرحت بها لأني لم أذق السكر منذ زمان بعيد .

بعد أن أفرغنا القارب نزعنا منه الدّفة والصاري والشراع والمجاذيف وفتحنا في قعره ثغرة كبيرة بضربات الفؤوس .

لم يكن لديّ كبير أمل في استرجاع السفينة ، ولكن هذا القارب يكفي إذ يظل بحوذتنا ، لنقلنا إلى إحدى المستعمرات الإسبانية ويتسع لنا ولبدرو ورفاقه .

وتكاتفنا جميعاً حتى جذبنا القارب بعيداً عن الشاطئ لئلا يسحبه المد والجزر ، ولم نكد ننتهي من هذه المهمة حتى سمعنا طلقة مدفع تطلب من البحارة العودة إلى السفينة ، ثم تتابعت طلقات المدفع ورُفع العلم إنذاراً أخيراً ، ولما لم يستجب أحد لندائهم أرسلوا قارباً آخر ، أبصرنا فيه ستة رجال مسلحين بالبنادق .

فقلت لهم :

– لنعد إلى القصر ونراقبهم من فوق الصخرة التي تحجبها أوراق الأشجار عن العيون ، ثم وقفت مع القبطان والآخرون قد قبعوا في مراكزهم ينتظرون منا الأوامر .

كانت السفينة – كما ذكرت – راسية على مسافة ميلين ، واستطعنا أن نتأمل وجوه القادمين في القارب بواسطة المنظار المقرب .

قال القبطان :

– إن بين القادمين ثلاثة شبان سيقوا إلى التمرد رغماً عنهم ، ولكن زعيم الطاقم وبقية المجموعة من الرجال الخطرين ، وأخشى أن يتفوق عددهم علينا .

فقلت له :

– إنهم ستة ونحن سبعة ، ومركزنا أقوى من مركزهم ، فأين الخطر ؟ وماذا بعد الموت ؟ ولكن إذا غلبناهم فالأمر مختلف ، وإنّ ما يقلقني خوفي على هؤلاء الثلاثة المخلصين لك أن يصيبهم رصاصنا .

وصل مركبهم إلى الشاطئ ووقف بجانب المركب الأول ، ورأينا دهشتهم لحالة هذا المركب . وتشاوروا برهة ثم أطلقوا عدة طلقات في الهواء ودفعوا مركبهم إلى الماء وركبوا فيه .

وأدركت أنهم لم يجدوا أحداً من رفاقهم ورأوا مركبهم مكسوراً ، فعادوا إلى السفينة ليقولوا إن رفاقهم قد قتلوا وتحطم مركبهم ، وصرخ القبطان وهو يرتجف :

– لقد رجعوا .. لقد رجعوا .. ضاعت سفينتي .. تخلوا عن رفاقهم ، ولن أرى سفينتي أبداً !

فقلت له وأنا أهدئه :

– لا تحزن يا قبطان ، انظر إليهم .. هاهم قد عادوا ! لقد بدّلوا رأيهم .. ولم نفقد الأمل بعد .

وبالفعل ، لقد رجع المركب وأرسى في الخليج ، ثم نزل منه البحارة متوجهين إلى الهضبة التي كنت أستخدمها مرصداً لي وتركوا ثلاثة منهم للحراسة .

وصل البحارة إلى أعلى الهضبة وبدؤوا يصرخون وينادون ، ولم يجرؤوا على التوغل في الغابة ، فجلسوا تحت شجرة

يتداولون ، وكأنهم يدركون أن أصحابهم ليسوا بعيدين عنهم ، ولم يخطر لهم أن وراء هذه الأدغال الكثيفة مسكني وأصحابي ينتظرونهم بالبنادق ، وسألني القبطان :

– ألا تخشى أن تصل نداءاتهم إلى الأسرى الذين وضعناهم في المغارة ؟

– لا تخف ، إن سمعوها فلن يجرؤوا على رفع أصواتهم بالنداء ، لأنهم يظنون أننا وضعنا على باب المغارة حارساً يقتل من ينادي ، كما أننا أحكمنا إغلاق باب المغارة ولن يسمعوا شيئاً .

فقال القبطان :

– ليسمع الله منك ! ولكن ماذا يفعل هؤلاء البحارة في الأعلى ؟ هل ينامون ؟ في هذه الحالة نفاجئهم أثناء نومهم . وتناهى إلى سمعنا إطلاق بنادقهم في الهواء ، فقال القبطان :

– ألا ننتهز فرصة إفراغهم بنادقهم للهجوم عليهم ؟

وكان جواب سؤاله أن هبطوا جميعاً من الهضبة في اتجاه البحر ، لقد يئسوا من العثور على أصحابهم ، وقرروا الانطلاق

في المركب ، فأشرت إلى القبطان أن يلحق بي وهبطت أمام مسكني .

دعوت جمعة ومساعد القبطان وطلبت منهما أن يتسللا إلى الناحية الغربية من الجزيرة ، وبعد ذلك يبدآن بالصراخ والنداء حين يكونان على مسافة نصف ميل من المركب ، فإذا سمعا نداء البحارة اختفيا عن الأنظار دون أن يتوقفا عن النداء ، ثم يدوران حتى يجذبا جماعتهما إلى الغابة أبعد ما يكون وسط الجزيرة ، ثم يعودان إليّ مسرعَيْن .

فانطلق جمعة والمساعد لتنفيذ الأوامر .

بعد عشر دقائق رأيت جماعة البحارة قد اقتربت من المركب ، ثم التفتوا لنداء جمعة والمساعد ، وجعلوا يجرون وينادون أيضاً ، وكما توقعت ، وقف الخليج حائلاً بينهم وبين الغابة فاضطروا إلى الصعود في المركب لكي يدوروا إلى الناحية المقابلة ، وتركوا المركب قرب الشاطئ بعد أن ربطوه إلى شجرة

وجعلوا عليه حارسين ، ثم تابعوا جريهم إلى مصدر الصوت حتى غابوا عن أنظارنا .

الفصل الثاني عشر
العودة

التفت إلى القبطان والمسافر معه والبحارين المخلصين له وقلت :

– جاء وقت الجد ، أنت تعلمون أن قضيتنا عادلة ولا بد للحق أن ينتصر .

واندفعنا إلى المركب فلم يكد الحارسان يفعلان شيئاً ، فقد صرعنا الأول واستسلم الثاني الذي عدّه القبطان من المخلصين له ولكنه اضطر إلى مجاراة أصحابه ، فأمّناه على نفسه ، وأقسم للقبطان أنه سيفعل ما بوسعه لكي يساعده على استعادة سفينته ، ولو سفح دمه في سبيله ، وأدركت أنه صادق في قوله فأعطيته بندقية ، فأصبح عددنا ثمانية مع جمعة ومساعد القبطان .

ورجع إلينا جمعة والمساعد بعد أن ضللا العصابة ، وساقاهم من هضبة إلى هضبة حتى انهارت قواهم ، وتيقنا أنه سيحل الظلام بعد قليل ولن يستطيعوا الرجوع إلى السفينة .

مرت ساعتان وسمعنا العصابة تتناقش فيما بينها ، ويقول أحدهم للآخر إنه منهك من الجري ولا يستطيع الوقوف ، وهذه أنباء جيدة بالنسبة إلينا ، ثم نظروا إلى الشاطئ فأطلقوا صرخات الفزع إذ كان قاربهم مغروساً في الرمال بعد أن انسحب ماء البحر بسبب الجَزْر واختفى الحارسان ، وظنوا أن الجزيرة مسحورة وأنهم عرضة للهلاك الأكيد ، وجعلوا يتمشون جيئة وذهاباً وقد أسقط في أيديهم ، وظهر اليأس والخوف على وجوههم ، وكان أحد زعماء التمرد أكثرهم خوفاً وجبناً .

وأمرت جمعة والقبطان أن يزحفا حتى يقتربا من المجموعة الصغيرة المتكونة من زعيم الطاقم واثنين من بحارته ، وأن يطلقا النار عليهم حتى يتأكدا من إصابتهم .

كان القبطان يرتجف غضباً ، ويرى أن الفرصة مواتية لكي يثأر لنفسه من هذا البحار الذي أثار عليه جماعته وانتزع منه

سفينته ، فلم يلبث أن أطلق النار عليه فأرداه قتيلاً ، ولقي أحد رفيقيه المصير نفسه وهرب الثالث .

حين سمعت العصابة ، أو ما بقي منها ، صوت الرصاص سارعوا إلى المركب فاختبؤوا فيه وقد سيطر عليهم الذعر لأنهم لا يعرفون مصدر الخطر ، فطلبت من البحار الذي استسلم لنا أن يناديهم بأسمائهم ويدعوهم إلى الاستسلام ، وكان هدفي من ذلك إيقاف المذبحة ، فناداهم البحار :

– هل أنت سميث ؟

فأجابه صوت مرتجف من المركب :

– نعم ، أنا هو .

– ارموا أسلحتكم واستسلموا وإلا هلكتم جميعاً .

وسأله صوت أحدهم :

– لمن يجب أن نستسلم ؟

– للقبطان الذي يطاردكم منذ ساعتين ومعه خمسون رجلاً مسلّحاً ، زعيم الطاقم وويل قتلا ، وأنا أسير ، استسلموا لئلا تموتوا .

وتوسل إليهم أحد المتمردين :

– هل تضمنون حياتنا إذا استسلمنا ؟

– نعم ، إذا رميتم السلاح حالاً عفونا عنكم ما عدا (ويل أتكنس) .

وكان ويل أتكنس أول المحرضين على التمرد ، وهو الذي قبض على القبطان وجرده من سلاحه ، وارتفع صوته متسائلاً :

– لِمَ تعفو عن الآخرين يا قبطان ولا تعفو عني ؟

فأجابه القبطان :

– حسناً .. حسناً .. سننظر في أمرك وأدافع عنك أمام حاكم المنطقة إذا استسلمت حالاً ودون إثارة الانتباه إلينا .

وكان يعنيني بقوله " حاكم المنطقة " ، وكتمت ضحكي حين نطق القبطان بهذه الكلمة ، نعم لقد غدوت حاكم منطقة ، أنا الغريق البائس ، راعي الماعز ، والصديق الوحيد للببغاء بول ، لي حق الحكم بالحياة والموت على هؤلاء الرجال ، سبحان الله الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء ! لذلك سأكون في مستوى مسؤوليتي وأجنح إلى السلم وأنقذ هذه الأرواح الضالة .

وكان للقبي تأثير عظيم على المتمردين الخمسة ، فرموا السلاح طمعاً في الحياة ، وأمرت بشد وثاقهم ، وطلبت من " كتيبتي " التي عددها ستة رجال لا خمسون كما تصور القبطان أن تصادر المركب ، وقررت حفاظاً على مهابتي أن أختفي عن أنظار هؤلاء السجناء .

وجعل القبطان يعنفهم ويذكر لهم سوء فعلهم ، فكيف تجرؤوا أن يستولوا على سفينته ويجعلوا منها وسيلة إلى القرصنة ؟ ألا يدرون أن مصيرهم البؤس أو الموت شنقاً ؟ وقال لهم إنهم ليسوا أسراه ، ولكنهم في قبضة حاكم الجزيرة ينـــزل بهم ما يرى من العقاب .

وارتمى أتكنس على قدمي القبطان يرجوه أن يشفع لهم عند " حاكم الجزيرة " . وفعل أصحابه مثله ، فذرفوا دموع التوبة والألم ، وقلت لنفسي لقد حانت ساعة الخلاص ، وما أسهل أن ندفع هؤلاء الناس إلى أن يفعلوا ما بوسعهم لكي يساعدونا على استعادة السفينة ! فابتعدت إلى الظل لئلا يعرفوا نوعية ذلك الحاكم الذي يتصرف بهم .

وناديت أحد الرجال وبلغته أوامري فصاح :

– يا قبطان إن الحاكم يدعوك !

فقال القبطان وقد أدرك اللعبة التي ألعبها :

– بلغ صاحب السعادة أني قادم حالاً .

وكان لقب " صاحب السعادة " اختراعاً ملائماً ابتدعه القبطان ، وكان له بالغ الأثر على السجناء الخمسة فجعلوا يرجونه مرة ثانية أن يشفع لهم عند " صاحب السعادة " .

حين جاء القبطان إلى جانبي أفضيت إليه بالخطة التي رسمتها لاستعادة السفينة ، فوجدها ممتازة وعزمنا على تنفيذها من الغد ، ولا بد لنجاحها من التفريق بين السجناء ، فرميت أتكنس واثنين من أصحابه داخل المغارة ، وجعلت الكلب توركو حارساً عليهم ، وسقت الأسيرين الآخرين إلى النفق بجانب البحر ، وقد أوثقت أيديهما ، وأظهرا الطاعة طمعاً في العفو ، ولا خطر علينا منهما .



من صباح الغد ، أرسلت القبطان ليفاوضهم ، وذكر لهم خطورة فعلتهم ، وأن العفو الذي نالوه من الحاكم لا ينفي عنهم جريمة التمرد ، وأنهم سيشنقون إذا أرسلوا إلى إنكلترا ، ولكنهم إذا أسهموا في استعادة السفينة وأرجعوها إلى القبطان فإن إطلاق سراحهم والعفو عنهم أمران مؤكدان .

واستقبل الأسرى هذا الاقتراح برغبة وهم يعلمون أنه سبيلهم الوحيدة للنجاة من الإعدام جزاء ما قدمت أيديهم ، وارتموا على قدمي القبطان يقسمون له على الوفاء والإخلاص .

وبعد أن أخذنا عليهم العهود بدأنا بتنفيذ خطتنا .

فأطلقنا سراح الأسيرين في النفق ودفعنا إليهما السلاح ، فانضما إلى الجماعة الصغيرة على الشاطئ المؤلفة من القبطان ومساعده والمسافر وخمسة البحارة الذين أقسموا على الطاعة واحداً تلو الآخر .

بعد أن أصلحنا المركب المكسور صعد إليه القبطان وثلاثة من البحارة ، وركب الثاني مساعدُه والبحاران الآخران ، وبقيت مع جمعة في الجزيرة لحراسة الأسرى وتزويدهم بالطعام .

وكان القبطان قد ضبط خطته ، فوصل المركبان قرب السفينة منتصف الليل تماماً ، وما إن أصبحوا على مسمع الصوت ، أمر القبطان سميث بأن يقول للبحارة على ظهر السفينة إنه قد طال البحث عن رفاقه ولكنه جاء بهم سالمين ، ولعب سميث دوره واستمر يحادثهم حتى يتيح الفرصة للقبطان ومساعده للصعود إلى السفينة ، ولم تمض عدة دقائق حتى تغلبت الجماعة الصغيرة على المتمردين وقد باغتتهم ، ولم يقاوم سوى القبطان الجديد ومساعده ونجار السفينة ، فقتلوهم واستسلم الآخرون

حين رأوا القبطان . وهكذا نجحت خطتي دون إراقة كثير من الدماء .

بعد أن استولى القبطان على السفينة أطلق سبع طلقات من المدفع إيذاناً بنجاح الخطة ، وكنت منتظراً هذه اللحظة حتى الساعة الثانية صباحاً ، وقلت لجمعة :

– هيا إلى النوم ، لقد كان نهاراً متعباً مكللاً بالنجاح ، وبفضله سيرى سيدك براري إنكلترا الخضراء .

نمت ليلتي هانئاً ، واستيقظت على صوت طلقة مدفع قريبة ، ونزلت من سريري وارتديت ملابسي بسرعة وجريت إلى الشاطئ .

فرأيت القبطان وقد أقبل عليّ مرحباً فاتحاً ذراعيه وعانقني وعيناه طافحتان بالدموع ، فقال وهو يشير إلى السفينة الراسية على مسافة ميل من الشاطئ :

– يا محرري ويا أخي .. هاهي ذي سفينتك راسية ، وإنها ملكك بما احتوته .

وكاد يغمى عليّ من التأثر : أصبح خلاصي ملك يدي ولا شيء يمنعني من العودة إلى بلادي حين أشاء .

وبقيت عدة لحظات غير قادر على الكلام ، وكدت أهوي على الأرض لولا أن تداركني القبطان ، وقال لي بحنان :

– اهدأ نفساً يا صديقي ، لقد انتهت آلامك وانتهت آلامي معها ، ولا تنس أن عزلتك في هذه الجزيرة كانت سبباً في إنقاذ أرواح كثيرة ، إما من الموت أو من ارتكاب الجرائم ، إن مهمتنا لم تنته بعد ، لأن بين السجناء خمسة أوغلوا في الإجرام ، وقد وعدت بأن أنقذ حياتهم ، فما العمل ؟

فقلت له :

– ستكون هذه الجزيرة سجناً لهم ، فهي بعيدة عن خطوط الإبحار وهذا أعرفه بالتجربة . وسيمضي وقت طويل قبل أن يستطيعوا الفكاك من عزلتهم ، ولن تكفيهم إذا لم يعملوا في الزراعة وتربية الماشية ، ولعل مزاجهم العكر يروق بهذا الهدوء المحيط بهم .

فقال القبطان ضاحكاً :

– أنت على صواب يا سيدي الحاكم ، ولكن قبل أن يمثل هؤلاء الرجال أمامك ، هل تسمح لي بأن أخلع عليك بعض الثياب ؟

فقلت أمازحه :

– هذا مقبول منك ، لأن ثيابي الحالية لا تخيف سوى عنــزاتي وخادمي جمعة .



فأمر أحد البحارة أن يأتيني ببدلة كاملة ملائمة لمنصبي الجديد ، ووجدت نفسي في زي غريب لا أرتاح فيه كما كنت مرتاحاً في ثيابي التي صنعتها بيدي .

ومَثُل المساجين أمامي ، فأصدرت عليهم الحكم بلهجة رزينة أن يقضوا في الجزيرة حياهم كلها ، أو بضع سنوات على الأقل حتى يخرجوا منها جزاء جرائمهم ، وبينت لهم أن الجزيرة خصبة ، وقد تركت لهم السلاح والبارود والملابس والأدوات ، ونصحتهم ألا يعودوا إلى إنكلترا إذا كتبت لهم النجاة ، لأن المشنقة بانتظارهم ولا أستطيع أن أفعل لهم شيئاً .

فشكرني السجناء الخمسة لأني تركتهم أحياء ، وأظهروا السرور بهذا السجن الذي فرضته عليهم .

وشرحت لهم ما تعلمته في هذه الجزيرة من صنع الخبز إلى زراعة القمح إلى تجفيف العنب .

من الغد ، جعلت في القارب ممتلكاتي كلها : أي الببغاء بول والقطط والكلب توركو وبعض الذكريات من حياتي المتوحدة ثم ودعت السجناء ، وحمل إليهم أحد قوارب السفينة ما وعدهم به

من البنادق والأدوات ، وأضاف إليها القبطان أكياساً من البازلياء والعدس والبطاطا لكي تكون عدالة حاكم الجزيرة كاملة لا تعرف الظلم .

طلبت من جمعة بعدئذ أن يأتي معي ، وصعدنا الهضبة وألقينا نظرة وداع أخيرة على جزيرتي .

لقد عشت على هذه الأرض قرابة الثمانية والعشرين عاماً ، ولاقيت فيها العذاب واليأس ، وأمضيت سنوات طويلة من العمل بحيث يحق لي القول إن هذه الجزيرة ملك لي ، وامتلأت عيناي بالدموع وفاض قلبي بالأسى . قال جمعة وهو يمسك بيدي :

– لا تبك يا سيدي ! ستعود إلى أهلك ووطنك وليست هذه الجزيرة سوى سجنك .

فقلت له :

– نعم يا جمعة ، لطالما تمنيت الخلاص منها ، وإن بكائي ليبدو غريباً ، واعلم أني لا أستطيع طي هذه الصفحة الطويلة من

حياتي دون أن أودعها وداع الصديق للصديق ، فهذه المنحدرات وهذه الغابات وتلك الشواطئ ستختفي من حياتي أبد الدهر .

فقال جمعة بصوت حزين :

– سنعود إليها .

فقلت وأنا أشير بيدي إلى المساحات الخضراء :

– نعم ، سنعود ..

وهبطت وراء خادمي وصعدنا إلى المركب الذي كان بانتظارنا .

كانت رحلة العودة رحلة هانئة ، توجهنا أولاً نحو الغرب لكي نخلص السبعة عشر إسبانياً من أيدي المتوحشين ، ولم أنسهم ، وصادفناهم في منتصف الطريق راكبين قاربهم ذا الشراع ، وكم ابتهجت لرؤية بدرو الإسباني الشجاع !

طلب الإسبان من القبطان أن ينقلهم إلى الشاطئ البرتغالي فلبى طلبهم .



حين عدت إلى إنكلترا ، ظل جمعة معي ولم يفارقني لحظة ، وأظهر لي من الود والوفاء ما يعجز اللسان عن وصفه ، وبعت الأراضي التي كنت أملكها في البرازيل وقد تضاعف ثمنها ، فوجدتني في وطني بالغ الثراء ، لقد غادرت مسقط رأسي وملاعب طفولتي خائفاً لا أملك شيئاً ، ورجعت إليها غنياً يشار إليّ بالبنان ، وبذلك صدّقت قول القائل : " ترحّل ففي الترحال سبع فوائد .." .

في هذه الساعة التي أختم فيها كتابة يومياتي وأروي حياتي المتوحدة أسمع في الحديقة التي تغمرها الشمس ضحكات أولادي الذين يلهون فيها مع جمعة وتوركو ، وذلك أن " روبنسون كروزو " المنعزل الذي يرتدي جلد الماعز قد أصبح زوجاً ودوداً وأباً عطوفاً ، ولئن خطرت بباله فكرة العودة إلى جزيرته ليرى موطن آلامه فإنه يهمس بتلك الرغبة إلى صديقه المخلص جمعة دون أن يسمعه أحد .

خاتمة

هل يستطيع الرحالة الذي عاش هذه المغامرات الشيقة أن يعيش حياة الرتابة ؟

لم يكن روبنسون كروزو من أولئك الناس الذين يرتضون لأنفسهم حياة تشغلها التوافه البسيطة ، ولئن عاش عشر سنوات بين أهله فقد أحس برغبة لا تقاوم في العودة إلى جزيرته حيث ترك البحارة الخمسة المتهمين بخيانة قبطانهم ، ورأى أن عشر سنوات كافية للتكفير عن جريمتهم ، فأودع أطفاله لدى أحد أقربائه الخُلّص وصحب جمعة وغادر إنكلترا مرة ثانية .

كانت السفينة التي استقلها تقوم برحلة طويلة إلى البرازيل والهند والصين ، فدفع إلى قبطانها مبلغاً ضخماً من المال كي يعرّج على جزيرة روبنسون .

حان الوقت لكي نقول إن حكاية الرجل الذي عاش ثمانية وعشرين عاماً وحيداً في جزيرة منعزلة ليست خرافية ، وإن

البحار الذي عاش حياة " روبنسون كروزو " قد سكن جزيرة على ساحل أميركا .

ولكن على حين جعل الكاتب (دانييل ديغو) بطله يسكن جزيرة من جزر الأنتيل ، فإن الجزيرة التي عاش فيها سلكريك كانت واقعة قرب الشيلي من جزر المحيط الهادي .

ويستطيع الزائر أن يرى المغارة التي سكنها والرفوف التي حفرها فيها ، ويستطيع أن يصعد إلى الهضبة التي كان يرصد منها روبنسون كروزو البحر أملاً في أن يرى سفينة عابرة تنقله إلى وطنه .

إنها جزيرة (خوان فرنانديز) التي توجه إليها روبنسون كروزو ليرى جزيرته القديمة ، وقد تزود بطلنا بكل ما يلزم أولئك البحارة الخمسة الذين تركهم على الجزيرة : من أدوات وسلاح ومواعين وحبوب . ولم ينس روبنسون شيئاً ، لأنه عالم بما يحتاجه المقيم في تلك الجزيرة المنعزلة .

وحين انفصل المركب الذي يقله مع جمعة عن السفينة ورسا على الشاطئ ، كانت لحظة تاريخية في حياة روبنسون ، فلم يكن

يرى المساحات الخضراء والهضاب والغابات من وراء ضباب الذكريات ، بل هي حقيقة ملموسة ، كأنما لم يغب عنها سوى ساعة واحدة . وأمسك جمعة بيد سيده يشاطره عواطفه .

وسرعان ما استقبله البحارة وقد لوحت وجوههم الشمس يعبرون عن فرحتهم بلقاء روبنسون أحد أبناء وطنهم ، ومضوا به إلى قصره القديم فلم يكد يعرفه ، إذ تغير فيه كل شيء ، فقد عمد الرجال الخمسة إلى توسيعه حتى غدا قصراً حقيقياً بجانب المغارة ، يحيط به جدار ثابت تظلله الأشجار ، وتؤدي إليه طريق ممهدة تتعرج بين الحقول المزروعة .

وصعد روبنسون إلى مرصده فوجد أنهم قد أضافوا إليه لمسة من لمساتهم ، ووضعوا مقعداً تظلله الأشجار ، يجلسون إليه وقت الغروب يتأملون البحر وهم يدخنون حالمين ، ولم يكونوا يبحثون بعيون دامعة عن شراع يطل عليهم من وراء الأفق كما كان يفعل روبنسون كروزو .

لا .. لقد اعتاد هؤلاء الرجال الشرسون على حياة العزلة وأعدوا أنفسهم لقبولها .

وقد نشبت فيما بينهم بادئ الأمر خصومة تطورت إلى قتال ، ولكنهم أدركوا بمرور الوقت أن لا حياة لهم فوق هذه الجزيرة إلا إذا ساد الوئام بينهم ، واستطاع الأذكى فيهم أن يقنع الآخرين بأن حقيقة العمران والاجتماع الإنساني قائمة على هذا المبدأ : احترام حقوق الآخرين ، فانقلب هؤلاء الشرسون الذين تقارب أخلاقهم أخلاق الحيوان إلى إخوة متحابين يتقاسمون السراء والضراء خلال عشر من السنين .

وأصغى روبنسون بشوق بالغ إلى قصة كفاحهم مع غرائزهم البدائية أولاً ومع عناصر الطبيعة ثانياً ومع الأقوام المتوحشة المحيطة بهم أخيراً .

وقالوا له :

– إن جيراننا المتوحشين هم أسباب تضامننا واتصال الود فيما بيننا ، فلا قدرة لأيّ فرد منا وحده على مواجهة هؤلاء المتوحشين ، وأما بنادقنا الخمس فكانت قادرة على طردهم من جزيرتنا هذه ، ولسوف يتناقلون جيلاً بعد جيل الرهبة من هذه

الجزيرة التي يعمرها رجال "ينفثون النار ويطلقون الرعد" ، وها نحن أولاء آمنون بفضل تضامننا واتحاد كلمتنا .

فأثنى روبنسون وجمعة على حكمة هؤلاء الخمسة ، وتأكد لهما أثناء العشرين يوماً التي قضوها في الجزيرة أن السلام مخيم على هذه الجمهورية الصغيرة .

وحين أزف رحيل روبنسون جمع حوله هؤلاء الرجال وقال لهم :

– لقد كفّرتم يا أصدقائي عن الذنب الذي ارتكبتموه بهذه السنوات العشر من العزلة ، وتستطيعون العودة معي إلى إنكلترا ، فأعدوا أنفسكم للرحيل واجلبوا ما يلزم من مؤونة لرحلتنا هذه .

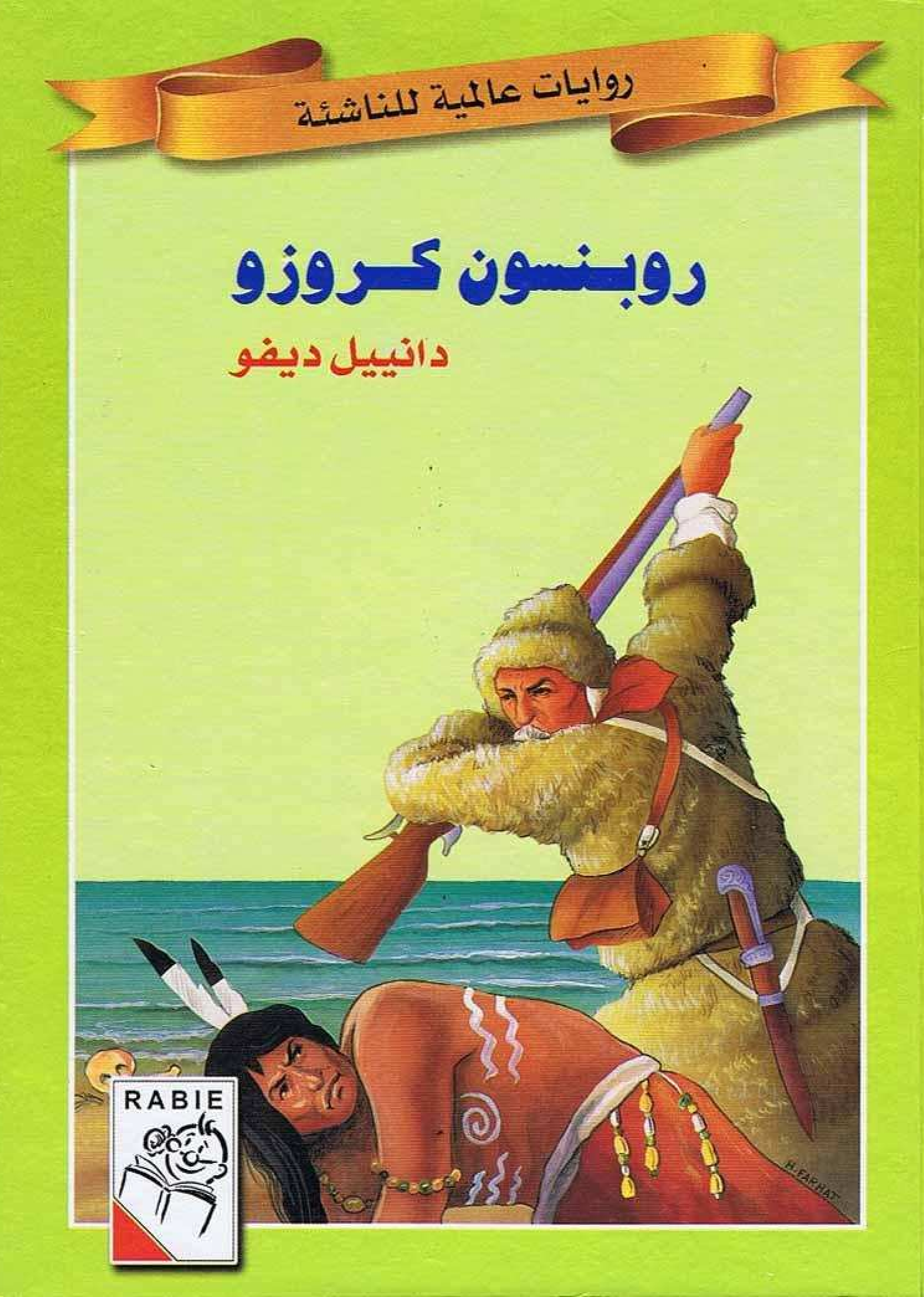
فقال أحدهم بعد أن تداول الأمر مع أصحابه :

– يا سيدي الحاكم ، رجاؤنا إليك أن تتركنا هنا ، فلا زوجة لنا هناك ولا ولد ، وأما على هذه الأرض المباركة فإن لكل منا أربعة أصدقاء يفدونه بأنفسهم ، ولدينا حيواننا الآهل وعملنا الدائب .. اتركنا هنا يا سيدي الحاكم ..

لقد غادرت السفينة التي تقل روبنسون وجمعة تلك الجزيرة ، وكم من جزيرة زار روبنسون بعدها ، ولكنه لم ينس حكمة أولئك الخمسة ولا صدق قولهم ، ولم يعد التجوال المتعة الكبرى في حياته بل إحدى المتع التي تضاف إلى سواها .

وبعد أن جوّل ما جوّل في بلدان أوروبا المختلفة ، وبعد أن واجه المخاطر ، رضي من الغنيمة بالإياب إلى مسقط رأسه ، وقَصَر حياته على فعل الخير والإحسان إلى الناس ، لأن المرء لا يكون سعيداً إلا بسعادة إخوته من بني البشر .

الفهرس


روايات عالمية للناشئة
روبنسون كروزو
دانييل ديفو
RABIE
H.FARHAT

روبنسون كروزو

دانييل ديفو

يغادر الفتى روبنسون كروزو أهله ووطنه بحثاً عن المغامرات في أعالي البحار، ولكن السفينة التي يستقلها تغرق وينجو بأعجوبة ليجد نفسه فوق جزيرة مهجورة، فيعيش فيها ثمانية وعشرين عاماً .. فكيف استطاع أن يواجه خطر الطبيعة، وعدوان جيرانه من آكلي لحوم البشر؟.

وهل يعود إلى وطنه سالماً؟

صدر من هذه المجموعة:

1- الذئب الأبيض
2- توم سوير
3- الهندي الشجاع
4- مذكرات حمار
5- نداء الغابة
6- روبنسون كروزو
7- هايدي
8- حكايات أندرسون
9- عشرون ألف فرسخ تحت البحار
10- ريمي الصغير
11- نساء صغيرات
12- جزيرة الكنز
13- حول العالم في ثمانين يوماً
14- كوخ العم توم
15- شرلوك هولمز
16- مغامرات الكابتن فراكاس
17- حرب النار
18- الحوت الأبيض
19- كتاب الأدغال
20- أحدب نوتردام
21- اللورد الصغير
22- الشيطان الصغير
23- أحزان صوفي
24- فتيات مثاليات

تصميم الغلاف: هيثم فرحان

